الطريق إلى الله

تأليف

العالم الرباني الشيخ حسين البحراني

دار التعارف للمطبوعات




الطريق إلى الله



تـألـيــف

العالم الرباني الشيخ حسين البحراني

تحـقـيــق

السيد باسم الهاشمي

دار التعارف للمطبوعات

بيروت

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

دار التعارف للمطبوعات

المكتب : شارع سوريا - بناية درويش - الطابق الثالث
الادارة والمعرض : حارة حريك - المنشية - شارع دكاش - بناية الحسنين
تلفون : ٨٣٧٨٥٧ - ٨٢٣٠١٠ - ٨٢٣٦٨٥
صندوق البريد : ٨٦٠١ - ١١\٦٤٣ - ١١

بسم الله الرحمٰن الرحيم

مقدمة المحقق

أهدىٰ لي أحد الإخوان هذا الكتاب في طبعته القديمة، وما ان قرأته حتى وجدت أني أمام كتاب يمتاز بصفتين مهمتين:

الأولىٰ: أنه يتناول العرفان عن طريق أهل البيت عليهم السلام مستفيداً من أنوار أحاديثهم الشريفة، فجاء بحثه سهلاً ممتنعاً، فيه أعمق الإشارات العرفانية بأوضح وأبسط وأبلغ بيان، وبهذا يختلف عن العرفان الفلسفي الذي أقل ما يقال فيه أنه ذو مصطلحات غير ميسّرة، وآفاق يتعب فيها المرتاد، وربما لا يتحمل أجواءها فتنعكس عليه سلباً في تربية نفسه.

الثانية: أن المؤلف المرحوم الشيخ البحراني كان رجلاً عالماً عاملاً فجاء حديثه من القلب باحثاً عن قلوب امتحنها الله للإيمان، وهذه الصفة قلّما اتصف بها كتاب في هذا المجال.

فتاقت نفسي لإعادة طبعه مصححاً محققاً لينتفع به المؤمنون ويستنير بإشاراته الصالحون في طريق التكامل.

ورغم أني لا أملك له نسخة خطيّة فقد قمت بتخريج معظم أحاديثه على مصادرها وضبط نصوصها وتصحيح ما حوته الطبعة السابقة من أخطاء فجاء الذي تراه أمام عينيك، والعذر إلى الله وإليك.

بسم الله الرَّحمن الرحيم

تقديم

بقلم الشيخ مهدي السماوي

صلة الإنسان بربه الذي أحكم خلقه وأكمل تكوينه يزداد إدراكه لها كلما تقدم في كماله النسبي المقدّر له، والكمال الإنساني هدف مقصود في أصل وجود الإنسان، ولا يكمل الإنسان كماله المقدر له إلا إذا سار على الخط الذي رسمه الله له في تشريعه العظيم الحكيم، والذي جهد الأنبياء وأوصياؤهم وتابعوهم في عرضه على مجتمعاتهم بالتلويح لهم مرّة وبالتصريح أخرى، وفي إبعاد العراقيل التي توضع أمام المسيرة الكبرى لدعوة الله كلما وسعهم المجال، وتبعاً للحكمة في تبيان دعوة الله وحمل الناس عليها.

ودعوة الله على مرّ السنين ترعى نمو الإنسان ـ وهي تأخذ بنظر الاعتبار ضعفه وحاجته ومقدار تحمله في التزام الأحكام وضبط النفس في تصرفاتها، فيحسب لذلك حسابه الدقيق في دين الحق والفطرة ـ حينما تأخذ بيده الى التكامل والتسامي والارتفاع.

ونستطيع أن نفهم ذلك من امثال قول الرسول الكريم صلى الله عليه وآله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». وقوله: «جاء موسى

بعين، وجاء عيسى بعين، وجئت بعينين اثنين».

فالرسول الكريم صلى الله عليه وآله مبعوث ليتمّ عملاً قائماً، عمل الأنبياء والصالحون قبله بأمر الله في إشادته ورعايته كلّ قدر إستطاعته وما هُيء له من مجال تباعاً، حتى جاء دور الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله ليكمل البناء، وليعلن للبشرية الصيغة الأخيرة للإنسان الأمثل، ويقدم لها النماذج الحية في ذلك، ليعرف كُلّ تكليفه إزاء المرحلة الأخيرة من مراحل نمو الإنسان.

وما دامت الدعوة موجهة الى الإنسان فلا بد أن تلاحظ فيه أنه إنسان له جسم وروح وعقل.

فكما يلحظ تدرجه الزمني في تطوره الحضاري، فللإنسانية ككل تدرج وارتقاء كالتدرج الذي يمر به الإنسان الفرد، حيث يبدأ حياته صغيراً مستعداً للاكتساب ثم يرتقي في ذلك كلما تقدم الزمن به خطوة للأمام.

فكما يلحظ في دعوة الله ذلك لا يمكن أن تغفل مقومات وجوده الأساسية، فلا يمكنها أن تغفل متطلبات الجسد في الإنسان وهي تسمو بروحه الى الارتفاع والصعود، كما لا يمكنها أن تلغي منطق العقل وهي ترعى نزعات النفس وعواطفها وغرائزها، فلا بد لها من مراعاة ذلك جميعاً.

لا بد من التهذيب والتوفيق بين جميع القوى في الإنسان ما دامت الدعوة موجهة الى الإنسان، لأن الإنسان هو هذا (المركب المجموع).

ولا بد من ملاحظة كونه إجتماعياً بطبعه، فلم يكن الإنسان **كائناً**

فذاً معلّقاً في الهواء، وإنما هو إنسان يلتقي بالناس وبسائر الكائنات التي معه وفي حدوده فيؤثر عليهم ويتأثر بهم، ويأخذ منهم ويعطيهم.

وما دام إنسان على الأرض فهو بين هذا الأخذ والعطاء، الأخذ الذي لم يقتصر على زمانه فحسب، وإنما يمتد أمده من اليوم الأول الذي وجد فيه الإنسان.

فلذلك كانت دعوة الله تبارك وتعالى بناءً تعاهده المصلحون منذ اليوم الأول لوجود الإنسان، فالحكمة إقتضت منذ خلق الإنسان نزول النبوة عليه.

أجل إنها بناء يمتد في أبعاده الى الإنسان الأول، إشترك فيه أبو البشر آدم، واستمر من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان، وكل الأنبياء قبلهم وبعدهم والأوصياء لهم والخلّص من أتباعهم، فلكل من هؤلاء دوره في الإسهام في هذا البناء الضخم البعيد الزمان، ويتضح لنا هذا أكثر من قول سيد الرسل صلى الله عليه وآله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». فإن كلمة (أتمم) لها مدلولها التحديدي في تعريف الغاية التي من أجلها بعث الرسول الخاتم صلى الله عليه وآله.

فإذا عرفنا ذلك أدركنا بوضوح أن لله سبحانه طريقاً رسمه للبشرية، وخطاً مستقيماً أراد لهم أن يسيروا عليه، ويترسّموا خطى دعاته، فلا يزيغون عن حدوده، وهو طريق واحد على مدى العصور يضيق أحياناً ويتسع اخرى تبعاً للحكمة في مصلحة الإنسان، وهو هو في كل زمان ومكان لا يتعرّج ولا يلتوي، وإنما يلتوي المنحرفون عنه ويبعد الزائغون عن سننه القاصدة.

وعلى هذا الخط العريض والطريق الأعظم (الطريق الى الله) والصراط المستقيم سار الأنبياء من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا محمد صلى الله عليه وآله.

ومن هذا العرض الخاطف تتبيّن بعض الخصائص لدعوة الله تبارك وتعالى فمنها أنّها:

١ ـ واحدة على مدى العصور:

﴿شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا اليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي اليه من ينيب * وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم﴾[١].

فهي واحدة من حيث المبدأ والمعاد، وفي الوسيلة والمقصد والمعتقدات والتعاليم أيضاً، وتعاليم الأنبياء وإن اختلفت فيما بينها تبعاً لما تقتضيه حاجة الإنسان، وطبقاً لما تفرضه مصلحته ولكنها تتسم بالطابع الواحد في مناهجها وروحانيتها العالية.

٢ ـ ومن خصائصها أنها فطرية:

فلا تكون تكاليفها فوق الطاقة، ولا تكبت ما جبل عليه الإنسان من غرائز، ولا تغفل من حسابها ما عليه الإنسان من حاجات، بل تقدّرها وتزنها وزناً محكماً حين تفرض في تشريعها فروضها المختلفة، قال تعالى: **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها**

---

(١) سورة الشورى، آيات: ١٣ و ١٤.

لا تبـديـل لخلق الله ذلـك الـدين القيّم ولكن أكثـر النـاس لا يعلمون﴾[1].

٣ - ومن خصائصها أنها متسامية:

فهي فطرية تحسب للفـطرة حسابهـا وتزنهـا وزناً دقيقـاً وتقدر للحاجات والغرائز التي جبل الإنسان عليها تقديرها المتقن، ولكنها لا تسف بالإنسان مع غرائزه في دفعتها الحيوانية الهمجية، ولا تنزل به الى المنحدرات التي لا تليق بكرامة الإنسان التي كرمه الله بها وفضّله على كثيرٍ مما خلق تفضيلاً، بل ترفعه الى المستوى اللائق بـه في تشريعها العظيم الحكيم.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى أنها لا تقف عند الحق الفطري الذي تعطيه في تشريعها القويم بل تأخذ بيد المكلفين الى الصعود والتسامي كلما وسع المجال على مراتب متفاوتـة فيما بينهـا محددة للكمال البشري.

مثال ذلك ما يعدده بعض الأخلاقيين من مراتب للورع، فهـو يوضح لنا الدرجات المتفاوتة الحدود مما يختلف الناس في التحلي بها اختلافاً كبيراً.

فهم وإن حدّدوا الدرجات في أربع ولكن بين الواحدة والأخرى مما عليه الناس مسافات بعيدة المدى، يقول هؤلاء الأخلاقيون: إن الورع يتفاوت بين الناس في مراحل:

---

(١) سورة الروم، آية: ٣٠.

١ ـ المرحلة الأولى سميت بورع التائبين:

وذلك حين يمنع العبد إيمانه من ارتكاب المحرمات خوفاً من المولى تبارك وتعالى أن تنطبق عليه صفة الفسق عن دينه. فإذا ترقى فيه ذلك الخوف إتصف.

٢ ـ بورع الصالحين:

وذلك حين يمتنع عن اقتحام الشبهات خوفاً من ارتطامه في المحرمات، لأن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه، فيدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، ويترقّى عنده هذا الشعور أو الخوف فيصبح ورعه.

٣ ـ ورع المتقين:

وذلك حين يبتعد عن بعض المباحات خوفاً من أن تجرّه الى المحرمات، كمن يتوقف عن ذكر أحوال الناس ـ المباح ـ خشية من أن يجرّه الى الغيبة المحرمة، ويترقى هذا الخلق في بعضهم فينهيه الى:

٤ ـ ورع السالكين:

إذ يكون حينئذ قد توحّدت غاياته في غاية واحدة، والتقت أهدافه في هدف واحد هو ذكر الله تعالى والعمل بما يحبه الله تعالى، فيتجنّب كل خوض في غير ذكر الله، ويمتنع عن كل سعي إلا ما يحبه الله تبارك وتعالى له.

فهي وإن كانت مباحة لا يخشى أنها تجره الى المحرمات ولكن فلسفته في الحياة المستمدة من إيمانه العميق تزهده في كل أمر لا يؤدي الى الغاية التي من أجلها خلقه المولى وبها إمتن عليه.

فكل حديث ـ غير ذكر الله ـ لغو فارغ، لأنه لا يحقق الهدف الأسمى الذي يسعى لتحقيقه، أو لأنه يحجبه عن محبوبه الذي لا يرغب أن يحجبه شيء عنه، وكل حركة في غير ما يحب الله فضول لا يرضاه لنفسه، وهو يأخذ نفسه بالجد والحزم في أموره كلها.

وهذا مثل آخر:

الحق الثابت للمعتدى عليه، فإنّ له أن يأخذ به، ولكن التعالي على هذا الحق والتسامح فيه هو الذي تحببه التعاليم الإسلامية وترغب فيه ﴿**وأن تعفوا أقربُ للتقوى**﴾(١).

وهنا تتجلى قيمة الأخلاق الرفيعة التي يتحلّى بها المؤمن بتعاليم الإسلام والماضي على ضوء من توجيهاتها.

فقد بلغت في الدعوة الى التسامح ـ وهو من الخلق العالي ـ أعلى مرتقياته، حيث ينتهي الحال في بعضهم الى الدعاء وطلب المغفرة من الله تبارك وتعالى الى الشخص المعتدي، كموقف مالك الاشتر ـ وهو ممن تهذب على يد أمير المؤمنين عليه السلام ـ من الشخص الذي أساء معه ﴿**ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾(٢).

وستقرأ في هذا الكتاب أمثلة حيّة مستقاة من دعاة الله وحملة أنواره توضح ما ذكرناه، نظير الوارد في الباب السابع من الحث على تقديم النفع والمسرّات الى الآخرين ومراتب ذلك في بحث عدم

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٣٧.

(٢) سورة الروم، آية: ٣٠.

انتظار المكافأة واعتبار الإحسان منه نعمة ممنوناً بها عليه.

ومن الواضح أن للمُثل الأخلاقية العاليـة ـ التي تعلم الإنسان إنسانيته ـ مكانتها البارزة في التعاليم الإسلامية الخيّرة.

ومن خصائص الدعوة الى الله تعالى:

٤ ـ أنّها ميسّرة:

قد يذهب الخيال في بعضهم بعيداً فيخيّل له أن هذه الدعوة المتسامية صعبة المرتقى بعيدة المنال، وأنّى لإنسان أن يستعلي على ذاته فيكظم غيظه ويخرس الغرائز الصارخة، والحاجات المنـدفعة، والتي تريد الانطلاق والتعبير عن نفسها... إن الدين مثالي.. ويريد الشياطين بذلـك أنه خـرافي خيالي، أي أن الإنسـان يتمتع بـه في الخيال، ولكنه لا يمكن أن يعيشه الإنسان في الواقع الخارجي.

هذا ما ركزت عليه الدعوات المادية، وحاولت جهدها أن تطعن في الديانـات الإلهية عن طـريقه، وتبعّـد الناس عن تفهّمـه والأخذ به... ولكن ذلك معنـاه الجهل أو التجـاهل لتعـاليم الإسلام التي تعـطي الفطرة الإنسـانية حقّهـا من التشريـع ثم تدعـو الى التسامي والارتفاع في حدود يستطيع الإنسان أن ينفذ التعاليم فيها بشوق ولذّة، مختاراً في ذلك مصرّاً على تحقيقه.

وفي كل زمان نخبة صالحة من الناس ممن عرفوا ذلك وأنِسوا به طواعيةً، ولم يجدوا به أيّ عَنتٍ أو إرهاق، وإنّما يجدون به أفضل منطلق للتعبير عن شوقهم ومحبّتهم وولائهم للدين الذي به يؤمنون، والدعوة التي عملوا بأعلى حدٍ من تعاليمها مختارين مخلصين ﴿يريد

الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[1] ﴿ونيسرك لليسرى * فذكّر إن نفعت الذكرى﴾[2].

٥ ـ ومن خصائصها أنها دعوة واضحة:

تحدد للإنسانية أشواطها البعيدة، وتدعوها للانطلاق في مجالاتها الطليقة المحببة، لأن وظيفة الرسول التبيين والتوضيح والإرشاد، فلا غمغمة ولا غموض ولا إبهام ﴿**قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين**﴾[3].

فالتبليغ والبيان من شأنهم ووظيفتهم، ولأنَّ الحجة لله لا بد أن تقوم، ولا بد أن تكون بالغة... ومن لوازم ذلك أن تكون جليّة واضحة ﴿**فلله الحجة البالغة**﴾[4].

٦ ـ ومن خصائصها أنّها قويّة مصممة:

فهي دعوة تستمد وجودها وقوتها في الصمود ـ أمام أعدائها الألداء الأشداء ـ من الله تبارك وتعالى الذي بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون.

فالدعاة الذين عمّر الإيمان قلوبهم فراحوا يدعون الى الله وفي سبيله لا ترهبهم قوة مهما كانت عاتية، ولا يبهرهم بهرج مهما كان فاتناً، وقد استمسكوا بالعروة الوثقى، ولهم من الصبر أعظم قوة ومن الله أعظم مدد...

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٥.
(٢) سورة الأعلى، آيات: ٨ و ٩.
(٣) سورة يس، آيات: ١٦ و ١٧.
(٤) سورة الأنفال، آية: ١٤٩.

ومن الآيات الواردة: **﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله وعدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم﴾** .

وقد ضرب الأنبياء قادة الأمم في ذلك أروع الأمثلة في هذا الجهاد العقائدي المقدس، كما سار على طريقتهم المخلصون من أتباعهم.

وكمثل على ذلك موقف المثل الأعلى سيد الرسل وخاتم النبيين صلى الله عليه وآله من أعداء الدعوة العظيمة، وقد بذلوا مجهوداتهم المعروفة في المناورات بالقوة تارة، وبذل المادة تارة أخرى، من أجل أن يتنازل عن دعوته الجبارة، فمنّوه ـ بعد أن عجزت القوة أن تثنيه عن عزمه الماضي الأكيد ـ بكل ما يرغب الناس فيه من بهارج الحياة ومباهجها، فكان من ردوده عليهم قولته الخالدة: (والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته).

وعلى هذا مضت الصفوة من المؤمنين، ومن لدن آدم عليه السلام حتى يأذن الله لدعوته بالتمكين والظهور الذي وعد به في كتابه المجيد إذ يقول: **﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾**[2].

ولا بد من التصميم والثبات لدوام الدعوة أمام تحدّي الأعداء المعاندين، وهزء المستهزئين، وكيد الماكرين، وخبث المنافقين،

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٦٠.

(٢) سورة التوبة، آية: ٣٣.

وأمام جميع الابتلاءات التي يمرّ بها الداعية.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام: إن كان النبي من الأنبياء ليُبتلى بالجوع حتى يموت جوعاً.

وإن كان النبي من الأنبياء ليُبتلى بالعطش حتى يموت عطشاً.

وإن كان النبي من الأنبياء ليُبتلى بالعراء حتى يموت عرياناً.

وإن كان النبي من الأنبياء ليُبتلى بالسقم والأمراض حتى تتلفه.

وإن كان النبي من الأنبياء ليأتي قومه فيقوم فيهم يأمرهم بطاعة الله، ويدعوهم الى توحيد الله، وما معه مبيت ليلة، فما يتركونه يفرغ من كلامه ولا يستمعون اليه حتى يقتلوه، وإنما يبتلي الله تبارك وتعالى عباده على قدر منازلهم عنده[1].

ويتحدث عن إسماعيل الذي ذكره الله في الكتاب وأنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً فيقول عنه عليه السلام: سلط الله عليه قومه فكشطوا وجهه وفروة رأسه[2].

وكذلك سار على سنّة الأنبياء أتباعهم كموقف أصحاب الأخدود، وأسرة آل ياسر، وغيرهم من المؤمنين الذين عذّبوا في الله، يريد الجبابرة منهم عبادة الجبت والطاغوت والحجارة، وهم يأبون إلا التوحيد.

أحد... أحد...

غير مبالين بما ينزل بهم من أذى أو تعذيب ما داموا على كلمة

---

(١) و (٢) أمالي الشيخ المفيد: ص ٣٩ ح ٦ و ٧.

الإيمان وفي الصراط المستقيم، وما أكثر أمثلة الدعاة في ذلك وهم يرسلون المثل، ويذكرون بالعبرة، والآية، والكتاب، والموقف الجرىء في القول الخالد، والصرخة المدوّية.

وكل همّهم أن يعرف الناس صلتهم بخالقهم، فهم دائماً في المجتمع كالشمعة تحترق لتضيء الطريق للسالكين، وفي خلواتهم وملأهم يجتهدون في إبعاد الحجب والستائر بينهم وبين بارئهم اللطيف الخبير، فهم يقطعون زهرة أيامهم بالعمل الدائب، ولياليهم بالسهر الشاق، وكلّ همّهم رضا سيّدهم، فلا يبالون جوعاً ولا عطشاً ولا خوفاً من مخلوق أو أذى يُقصدون به.

ومن هذا الاستعراض المقتضب تتبيّن أهمية تهذيب الأخلاق وضرورته ومقامه البارز في دعوة الله تبارك وتعالى، وهذا مما تمتاز به عن الدعوات الوضعيّة في فلسفتها وقوانينها الأرضيّة.

فهي في كل حال تركّز على ضرورة الأخلاق في تكوين الإنسان الفاضل:

كالشجاعة بما تستلزم من إقدام في الأمور، واستقامة على المبدأ، وجرأة على المصارحة، وصدق في اللقاء.

والتسامي وما يستدعيه من تطهّر وترفّع وإيثار، وتأكيد الصلة بالله تبارك وتعالى والتعامل معه، تعامل شوق ومحبّة ينسيه كلّ عناء في الطريق.

والصبر وما يستوجبه من مثابرة وثبات وجلد.

والحكمة وما تفرضه من ورع وتحفّظ ورزانة، وتعقل في الأمور كلها.

والمشاركة الوجدانية وما تتطلبه من تفكير بالفائدة لخلق الله تعالى وإسداء النفع وتقديم المسرات لهم، وما يستطيع أن يقوم به من نصحهم ودعوتهم الى دين الله القويم.

إذاً يمكننا القول بأن المظهر البارز في الدعوة الإسلامية والرباط المقدس الذي يشدّ مختلف فروع الدعوة الإسلامية هو الأخلاق.

فالتشريع الإسلامي سواء أكان في الاقتصاد أم في الاجتماع، ومن بينه نظام الأسرة والأحوال الشخصية بالعموم، والسياسة، والعبادة وغير ذلك مما يحتاج اليه من التخطيط الذي يكفل سعادة الإنسان وكماله قد تعرضت له الشريعة الاسلامية... كل ذلك لا يتم إلا بالطريقة الاخلاقية التي تبنّاها الاسلام في تشريعه العظيم الحكيم، والتي تعاهدها باهتمام في تكوين الأمة والفرد وعلاقاته بربه ومجتمعه الخاص والعام.

ولا أظنني بحاجة بعد هذا الى ذكر أهمية الأخلاق ودورها الفعّال في حياة الفرد والأمة.

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فانْ هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولو كان شيء أعظم من الأخلاق لاختص الله به نبيه الحبيب سيد الكائنات حين أثنى عليه في كتابه الخالد، فقد أظهر قيمة الأخلاق حين امتنّ على رسوله الكريم بقوله: ﴿**وإنّك لعلى خلقٍ عظيم**﴾[1].

وقد سلف حديث الرسول صلى الله عليه وآله في أنّ الغاية من

---

(١) سورة القلم، آية: ٤.

بعثته صلى الله عليه وآله هي بيان مكارم الأخلاق: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

ولذلك خصه صلى الله عليه وآله بعنايته العظيمة وكذلك عترته الطاهرين. . . وقد كان من أدعية الإمام السجاد عليه السلام دعاء (مكارم الأخلاق).

ومن الضروري أن نشير هنا إلى أن الأخلاق ليست كما يذهب الدكتور أحمد أمين في كتابه «الأخلاق» واضرابه في أنها التعامل الخارجي الذي يقوم به الناس، وإنما الأخلاق ملكة راسخة في النفس أو سجايا ذاتية للفرد ينبعث عنها سلوك نظيف.

فالمجاملة التي ليس لها أساس داخلي مداهنة، الى الكذب والتصنّع أقرب منها الى الأخلاق التي هي أساس تكامل الشخصية الإنسانية الفاضلة.

ومن هنا تظهر أهمية الحديث عن الأخلاق والدعوة اليها خصوصاً في عصرنا الذي طغت فيه المادة والدعوات المادية الفاجرة الماكرة، وضاعت المقاييس الخلقية، وابتعد الناس عن دينهم، وجهلوا صلتهم بخالقهم العظيم إلا في حدود ضيّقة، في الوقت الذي لا حياة ولا سعادة ولا خير إلا في إدراك هذه الصلة والعمل بما تستوجبه.

ولذلك اهتم العلماء مدى العصور في تبيان هذه الصلة تبعاً لاهتمام أهل البيت العظيم بها، فألّفوا فيها الكتب وأطالوا الحديث، ومنها هذا الكتاب الذي نقدمه للقراء الأعزاء.

وهو من الكتب الجليلة، وقد مضى على تأليفه أكثر من مائة

وخمسين عاماً، وجدته في مكتبة المرحوم الشيخ عبد الهادي «جدي لأمي».

وكان رحمه الله شديد الاهتمام به، فقد درّسه لبعض المؤمنين، كما كتبه اكثر من عشرين مرّة يقدمه لأعز أصدقائه للاستفادة منه، وحين عرضت له ـ رحمه الله ـ الرغبة في نشره خفّ لتقديمه بكل لهفة ولطف حبّاً للانتفاع به.

كما كان المرحوم الشيخ محمد آل الشيخ عبد الرسول ـ زعيم السماوة الروحي في وقته ـ قد أعدّه كتاباً تدريسياً فيها، وقد أكثر من اهتمامه به، ولذلك كان لهذا الكتاب أثره الكبير في نفسي، وكانت الرغبة في نشره للجماهير المؤمنة ليكون نفعه عاماً تزداد كل يوم جديد حتى هيأ الله له أن يظهر، والأمور مرهونة بأوقاتها.

وإني إذ أقدمه للقراء الأعزاء لعلى ثقةٍ بأنه سيأخذ من نفوسهم مأخذه الكبير، فالكتاب بلغته البسيطة تطفح عليه نفس مؤلّفه ـ رحمه الله ـ سماحة ولطف مدخل.

واعتقد انك بعد قراءته ستتفق معي بأنه لا يقلّ أهمية عن كتابات معاصره العلامة الشيخ محمد مهدي النراقي «قدس سره» في (جامع السعادات) الكتاب الأخلاقي الجليل ولعله الوحيد في هذا الباب.

وقد نبّه المؤلف «قدس سره» الى دقائق في الأخلاق لا يهتدي اليها إلّا العلماء العاملون، أو على الأقل لا يستطيع عرضها وأداء الموضوع بالشكل الذي ستقرأه ما لم يكن قد بلغ في الأخلاق مرحلة عالية تؤهله لأن يكون من الخواص في صحبة أهل البيت عليهم

السلام، والعمل بارشاداتهم وهديهم، ولذلك لا أستطيع أداء حق هذا الرجل الكبير من الثناء عليه، وقد كلفت تقديم كتابه القيم القليل النظير في علم الأخلاق.

ولم يسعني وقد طلبت مكتبة الإمام الحسين عليه السلام تقديمه أن أحقق مصادر الأحاديث الواردة فيه، وإن كانت أغلبها من الأحاديث المشهورة والمعتبرة.

وقد حاول المؤلف «قدس سره» أن يجمع بحوثه التي ستقرأها من مشكاة أنوار أهل البيت عليهم السلام من دون إلتزام بذكر المصادر غالباً، ولا تقيّد بالنص الوارد، وإنما يكتفي بنقل المضمون.

والحق أنه «قدس سره» قد جمع فأوعى فقدم رسالة في الأخلاق العالية تحتل الصدارة في هذا الفن بما تضمّنته من محتوى جليل، وعرض رائع، ولغة سهلة ممتنعة.

وإنك ستقرأ بحوثاً في الأخلاق العالية، ولا بد أن تفعل فعلها الأخّاذ من نفسك، فهي وإن كتبت بلغة عصر مؤلفها«قدس سره» ولم يعمد فيها الى التزويق والبهرجة في عبارته، ولكن إيمان صاحبها الملحوظ وخلقه الرفيع هو الذي يظهر أثره في كل حرف كتبه، وللإيمان قوّة نفّاذة الى القلوب تفعل فعلها العجيب فيها.

ومن الواضح أن المؤلف لم تكن لتعنيه الناحية الفنّيّة بمقدار ما اهتمّ به من الناحية العلمية، ونفاذ الموعظة الى القلوب، وقد جاء من ذلك بخير كثير، ولعل الوقت لو كان متسعاً له اكثر لأتانا بجهدٍ أوسع وأوفر، ولكن المنيّة عاجلته.

كما يبدو من بابه (الحادي عشر) أن موضوعه بعد لم يتم، ولم

ينجز الغرض الذي هدف اليه في تأليفه المبارك هذا.

وقد قابلنا هذ النسخة التي اعتمدناها بالنسخة التي عند الشيخ محمد «رحمه الله» وغيرها من النسخ التي خطها المرحوم الشيخ عبد الهادي، فكان لهذه المقابلة أثرها المحمود في تحصيل النص الذي هو أقرب الى ذوق المؤلف، وتصحيح بعض الأخطاء، كما ينبغي أن نذكر بأننا تصرفنا بوضع بعض العناوين لمواضيع الكتاب.

ولعل من الجدير بالذكر ومن الأمانة أن نذكر أن المرحوم الشيخ عبد الهادي قد أضاف الى هذا الكتاب الجليل مجموعة من الأدعية والأوراد وبعض الاستشهادات الشعرية وبعض الأحاديث، حيث ظهر له أن غرض المؤلف كان يتجه الى الناحية التطبيقية، وقد سأل الله تعالى أن يهيىء له من يكمّله فأراد أن يحقق الله به ذلك.

ولما كانت الحاجة اليوم ماسة الى البحوث الأخلاقية التي ذكرها المؤلف «قدس سره»، والزيادة في البحوث تستوجب تكليفاً اكثر يبهض المكتبة الناشئة في عملها الجديد، على ان ذلك موضوع آخر نسأل الله تعالى أن تسنح له فرصة أخرى فينشر مستقلاً، وإن كان له كل الارتباط بمواضيع الكتاب باعتباره تطبيقاً عملياً له.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا (الطريق الى الله) سمّاه مؤلفه (رسالة في الأخلاق) وقد فضلنا تسميته باسمه الفعلي لأن صاحبه من السالكين الى الله تعالى، وقد ذكر فيه ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن من الخلق العالي حتى يقرّبه من الله تبارك وتعالى درجات، وما معنى أن الطرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق، ولأنّه يعرف الناس بصلتهم ببارئهم، وكيف يسلكون السبل اليه، كان الأنسب أن يسمى بـ (الطريق الى الله).

وهو بعد من خيرة الكتب الأخلاقية، وسوف لا تجدني مبالغاً إذا قلت بأن فيه كنوزاً من العرفان مستقاة من تعاليم أهل البيت عليهم السلام الذين آتاهم الله لباب الفضل وخالص الحكمة وفصل الخطاب.

ومؤلفه «رحمه الله» يتمتع بمكانة علمية جليلة، فهو من العلماء الأعلام مع اطلاع واسع، وعرفان متقن، وغزارة في المعرفة بالبحوث الأخلاقية التي أثرت عن أهل البيت عليهم السلام، كما يظهر ذلك من رسالته الجليلة هذه.

وكما أطراه جماعة من المحققين الأثبات كالبحاثة المحقق الكبير الشيخ أغا بزرك الطهراني، فقد ذكر في كتابه (أعلام الشيعة) (ج ٣ ص ٣ ـ ٤) بأن: «الشيخ علي بن الشيخ حسين بن الشيخ صادق البحراني: من العلماء الاعلام، رأيت في (مكتبة الشيخ مشكور الحولاوي المذكور آنفاً) شرح القواعد للمحقق الكركي، كتب المرتجم له بخطه على ظهر النسخة أنه نظر فيه، وتفكّر في معانيه، وذكر نسبه كما أسلفناه وتأريخ خطّه (١٢٢٧هـ)، ومعلوم أن وفاته بعد ذلك».

وتحدث عن كتابه هذا في الذريعة بعنوان (أخلاق بحراني) (ج ١ ص ٣٧٢) فقال: «رأيته في مكتبة سيدنا العلامة الحسن صدر الدين الكاظمي ، وكان يستحسنه كثيراً ويقول: ما رأيت كلاماً احسن من كلامه في باب الأخلاق، اللهم إلا بيانات جمال السالكين السيد رضي الدين علي بن طاووس.

وذكر في التكملة أن مؤلفه من متأخري المتأخرين من فقهاء

النجف وعلمائها في الحديث والرجال».

وكذلك ذكره السيد محسن الأمين «قدس سره» في أعيان الشيعة (ج ٢٧ ص ٤٠) بقوله: «الشيخ حسين بن علي بن صادق البحراني عالم فاضل أخلاقي من متأخري المتأخرين، من فقهاء النجف وعلمائها في الحديث والرجال والعرفان، رأينا له رسالة في الأخلاق ـ يشير الى كتابه هذا ـ أولها:

وبعد فيقول العبد الجاني والأسير الفاني حسين بن علي بن صادق البحراني: اني مستعين بربي ومتوكل عليه، ومتوجّه إليه بأحب خلقه اليه في جمع نبذ من نصائح أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم وإرشادهم لمواليهم... الخ».

وصاحب الذريعة سماها (أخلاق بحراني)، ووجدت في مسودة الكتاب أنه ذكر في آخرها أن المفيد يروي عن صاحب تحف العقول.

«وانها رسالة حسنة ولم يبق ببالي الآن مشخصاتها، وقال بعض من رآها انها من أحسن ما كتب في هذا الفن، وبعض قال أنّها رسالة في السلوك على طريقة أهل البيت».

وهذا الكلام الذي ذكره الحجة السيد الأمين عن الرسالة يدل على قيمتها عند العلماء، كما يدل على شهرتها وتداولها في ذلك العهد الذي ألف فيه (أعيان الشيعة) كما يظهر ذلك من كتاب (الذريعة)، مضافاً الى التنويه بمقامه العلمي الجليل، فهو من فقهاء النجف وعلمائها في الحديث والرجال والعرفان، ويكفي في تقييم ذلك ما يقول السيد الصدر في شأن رسالته الأخلاقية هذه:

«ما رأيت كلاماً أحسن من كلامه في باب الأخلاق. . . الخ».

ولهذا أرى أن من الحق أن أنوّه بأن المكتبة قد قامت بخدمة جليلة وجهد مشكورة عليه، أخذ الله بيد العاملين فيها من أجله لما يحب ويرضى، وجعل غايتهم وجهه وسدد خطاهم وهو حسبنا ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.

٢٧/٦/١٣٨٧هـ.ق　　　　　　　　　　　　　　　　مهدي السماوي

بسم الله الرّحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله على خيرته المنتخبين، وصفوته المنتجبين، ومظهر لطفه في العالمين، محمد وآله الطاهرين.

وبعد، فيقول العبد الجاني والأسير الفاني حسين بن علي بن صادق البحراني: اني مستعين بربي ومتوكّل عليه ومتوجّه اليه بأحب الخلق اليه في جمع نبذٍ من نصائح أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم، وإرشادهم لمواليهم، التي بها حياة قلوبهم، واستنارة عقولهم المظلمة من مخالطة الأهوية والشهوات المكدرة من خطرات المعاصي والسيئات، وأرجو من الله الأمداد والأسناد، وأن يجعله ذخراً لي ليوم المعاد، إنه الكريم الجواد، وعليه التوكل والاعتماد، وهو حسبي ونعم الوكيل.

ولنقدم لذلك مقدمة يظهر منها ما هو الغرض من إثبات هذه الكلمات، والتنبيه على هذه النكتات، وذلك إني كثيراً ما كنت أمنّي

نفسي الميّالة للباطل بجمع ما استفدت من آثار أهـل البيت عليهم السلام في الإيقاظ لهذه القلوب الغافلة، والإحياء لهذه النفوس الميتة بـادبارهـا عن الله وأعراضهـا عنه، فيمنعني عن ذلـك عدم نشـاطي للعمل، وملازمتي للكسل، فيكون ذلك وبالاً عليّ، فإن العلم إذا لم يعمل به لا يزيد صاحبه إلا بُعداً من الله، ولا يُرجى به التأثيـر في القلوب لما اشتملت عليه اخبار أهل البيت عليهم السلام من أن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته من القلوب[1].

ولما رأيت تقضّي العمر، ومشارفة الأجل، ورأيت أن التسويفات لا تجـدي، والتعللات لا تفيـد، وقـادني الى ذلـك إلتمـاس بعض الأحبّة، وإرادة جملة من الخلّان، استخرت الله سبحانه، وقصدت أن يكون ذلك تذكرة لنفسي، عسى أن تتنبّه عن غفلتها، ورجـوت فيه اليمن والبركة بسبب كونه إجـابة الإخـوان في الله، وتقربـةً الى الله سبحانه في خدمة اخبار أهل البيت عليهم السلام، ورجوت منه أن يشرّفني بذلك.

فعزمت بحول الله وقوّته على جمع مضامين من أخبار أهل البيت عليهم السـلام في أبواب متفـرّقة، وأصـولٍ متعددة، من غيـر ذكـر الأسانيد، ولا تحرٍ لنقل خصوص الألفاظ، فإن مضامينها بعد التنبيه عليها والتنبه لها مما تصـدقها العقـول السليمة، وتشهـد بها الفـطرة المستقيمة، فإن المقصود مجرد الإشارة، والاستعانة بالله ومنه التوفيق للعمل وعليه المتكل.

---

(١) الكافي ١: ٣/٤٤.

البــاب الأول

في الحاجة الى تهذيب الأخلاق
وبيان ثمرته
وشدة الاعتناء بشأنه

إعلم أيدك الله ان النبي صلى الله عليه وآله قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1].

ولا التباس في ذلك، فإن أمر المعاد والمعاش لا ينتظم ولا يتهنّأ طالبه إلا بالخلق الكريم، فلا تتوهّم أن العمل الصالح الكثير ينفع من دون تهذيب الخلق وتقويمه، بل يجيىء الخلق السيء فيفسد العمل الصالح كما يفسد الخل العسل[2] فأي نفع فيما عاقبته الفساد.

ولا تتوهّم أن العلم الكثير ينفع من دون إصلاح الخلق وتهذيبه، حاشا وكلّا، فإن أهل البيت عليهم السلام قالوا: لا تكـونوا علمـاء جبارين فيذهب بحقكم باطلكم[3].

ولا تتوهّم أن صاحب الخلق السيء يقدر أن يتهنّأ بمعاشرة والد

(١) البحار ٧١: ٣٨٢.
(٢) الكافي ٢: ١/٣٢١.
(٣) أمالي الصدوق: ٩/٢٩٤.

أو ولد أو زوج أو صديق أو رفيق أو دار أو أستاذ أو تلميذ، كلا، بل كلهم يتأذّون منه وينفرون عنه، وكيف يمكنه اكتساب الكمالات المتفرقة في الناس وأهل الكمال ينفرون منه ويهربون عنه؟!

واعلم أن من نظر الى طريقة أهل البيت عليهم السلام وتتبع في أثارهم وجد هدايتهم للخلق وجلبهم للدين إنما هو بأخلاقهم الكريمة، وبذلك أمروا شيعتهم فقالوا: كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم[١].

بل يعنون: بأخلاقكم الكريمة، وأفعالكم الجميلة، حتى تكونوا قدوة لمن اقتدى، وأسوة لمن تأسّى.

فإذا ظهر أن أمر المعاش والمعاد إنما يتمّان بمكارم الأخلاق، وان إتمام مكارم الأخلاق هو فائدة البعثة التي ما صلح الوجود إلا بها، تبيّن أن تهذيب الأخلاق مقدّم على كلّ واجب وأهم من كل لازم، ومع ذلك هو مفتاح كل خير، والمنبع لكل حسن، والجالب لكل ثمرة، والمبدأ لكل غاية.

انظر فيما ورد من أن الكفار يثابون على مكارم الأخلاق، وفي الذي كان دأبه مخالفة النفس فجرّه ذلك الى الإيمان، وفي الذي كان سخياً وكان من الأسرى عند النبي صلى الله عليه وآله فنزل جبرائيل عليه السلام من الله عزّ وجل بأن لا تقتلوه لسخائه فجرّه ذلك الى السلامة من القتل في العاجل والفوز بالجنة آجلاً[٢].

---

(١) الكافي ٢: ٦٤/١٤.

(٢) البحار ٧١: ٣٩٠/٤٩.

فإذا عرفت هذه المقدمة التي يظهر لكل من اختارها وجـرّبها صحتها وصدقها فاعلم ـ وفقك الله وأرشدك ـ أنّ لأهل البيت عليهم السلام أصولاً في الأخلاق وقواعد وضوابط تُعين ملاحظتها على كسب الأخلاق بسهولة ويسر، لا بتكلف وعسر، كما يدور عليه كلام علماء الأخلاق.

فإن النبي صلى الله عليه وآله أتانا في علم الشريعة بالشريعة السمحة السهلة موافقاً لما أخبرنا به ربه عز وجل من أنه يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر، وانه ما جعل علينا في الدين من حرج، كذلك في علم الطريقة فتح لنا أبواب اليسير وسدّ عنّا ابواب العسير.

فلا يثبطنك الشيطان عن أخذ نصيبك من علم الأخلاق بأن ذلك أمر صعب يتوقف على مجاهدة النفس، ورياضات بالغة! وأين أنت عن ذلك! فإنّا رأينا أهل المجاهدات الشاقة والريـاضات البـالغة مـا أوصلتهم إلا لمقاصد دنيويّة ومقامات رديّة، من غير رسوخ لهم بطريقة أهل البيت عليهم السلام، ولا تشبّه لهم في أطوارهم.

وأصل هذا المعنى وبيـانه: أن تعلم أن الله سبحـانه وتعـالى بلطف حكمته وجميل صنعته بهر العقول وامتحن أهلها بأن طلب من الخلق أموراً كليّة عظيمة، وجعل مفاتيحها أموراً جزئيّة حقيرة، فمن استعظم الأمور الموصلة اليها وتهاون عنها فاته ما أُريد منه، وكان ذلك من اعظم الامتحان له، ومن توسل بتلك الأمور الجزئية أوصلته الى تلك المطالب النفيسة الكلية، فهو لم يأت إلا الجزئي الحقير مع أنه اوصله الى الكلي النفيس الكثير، وذلك من أعظم السعادات له.

فتدبر هذه الحكمة البالغة وأمعن النظر فيها يظهر لك كيف اقام

الحجة البالغة على هذا الخلق، وأكمل لهم النعمة السابغة.

فيا لها من نعمة! كيف اوصلهم بهذه الجزئيات الى هذه المراتب السامية؟!...

ويا لها من حجة! كيف عرضوا أنفسهم للهلكة الدائمة، والعقاب الأليم، وكان يخلصهم منها الاتيان بجزئيات حقيرة؟!

فمن تأمل هذه الحكمة واقتبسها من آثار أهل البيت عليهم السلام ظهر له معنى قوله: إن من استقل قليل الرزق حرم كثيره[١]، وأن مبدأ كل الشرور والمهلكات هو استقلال القليل واستحقار الحقير.

كما أن مبدأ الخير نابع من مفهوم هذا الحديث، فأن مَن لم يستقل قليل الرزق لم يحرم كثيره.

وبعد تتبعك هذا المعنى تجد شواهده في الحل المحكم، والأخبار لا تحصى ولا تعد، منها قولهم: اتقوا محقرات الذنوب[٢].

وقولهم: لا تستحقروا طاعة فربما كان رضا الله تعالى فيها ولا تستحقروا معصية فربما كان سخط الله فيها.

الى غير ذلك من أخبارهم عليهم السلام، فاتضح للمستبصر المسترشد أن طريقة الشرع الشريف المحمدية إنما هي مبنية على أمور جزئية سهلة يسيرة بإذن الله موصلة الى أسنى المطالب وأهنى الرغائب.

ويزيد هذا المعنى وضوحاً التأمل في الحديث القدسي حيث

---

(١) الكافي ٥: ٥٦/٣١٨.
(٢) الكافي ٢: ١٠/٢٠٧.

يقول رب العزة سبحانه أنّ من تقرّب إليّ شبراً أتقرّب إليه ذراعاً[1].

فإذا كان هو سبحانه يدنو إلى من دنا منه ويدعو الى نفسه من أدبر عنه، فكيف بمن أقبل إليه، وقرع بابه؟!

وكفاك قول سيد العابدين في دعاء السحر: وان الراحل اليك قريب المسافة، وانك لا تحتجب عن خلقك الا أن تحجبهم الآمال دونك، أو. تحجبهم الأعمال السيئة، في بعض النسخ.

فيا أيها الأخ الطالب للإقبال على الله، والمتمني لهذه المرتبة السنيّة، استمع مني مقالة ناصحٍ لك مقتبسة من مشكاة أهل البيت عليهم السلام لا سواهم، لأن من شذّ عنهم شذ الى النار وهي:

انك بعد أن علمت أن المطلوب من العبد التخلق بـالأخلاق الكريمة التي بشرفها نسبت الى الرب، رب العزة، فقد ورد عنهم: تخلقوا بأخلاق الله.

وهي أخـلاق محمـد صلى الله عليـه وآلـه وآل بيتـه الـطيبين الطاهرين وشيعتهم.

واعلم ان قوام ذلك المعنى ونظامه إنما هو الجلوس على بساط الاستقامة ومجانبة الافراط والتفريط، فتقرب الى الله تعالى بما تيسّر لك من الطاعات واجتناب ما يكرهه من السيئات.

واجعل بناء أمرك على عدم المسامحة والمماهلة في جزئي ولا كلي، فكل ما تعلمه راجحاً من الأمور المعلومة الرجحان اجعل همك في فعله، ولـو كان جـزئياً حقيـراً في نظرك، وكـل ما تعلمـه بعدم

---

(١) الجواهر السنية: ١٢٩.

الرجحان من الأمور فاجعل همك في تركه واجتنابه وإن كان جزئياً حقيراً في نظرك..

ولا تجعل بناء أمرك على التسامح والتساهل لا في جزئي ولا كلي، بل ليكن أمرك مبنياً على الضبط والاتقان.

وإياك أن تتعلق بالإكثار من الأعمال من دون ملاحظة الضبط والاتقان، فإن أمراً واحداً تتقنه وتضبطه وتوقعه على وجهه على وفق الوضع المراد ينتج نتيجه الألوف من الأعمال الحسنة لا على وجه الضبط والاتقان، بل الآلاف الكثيرة من الأعمال الحسنة غير المتقنة لا تنتج نتيجة واحدة من الأعمال المتقنة المضبوطة، بل لا نسبة بينها عند أهل المعرفة والحكمة...

لا أقول لك: لا يقع منك الأخلال بجزئي ولا بكلي، حتى تستعظم هذا المعنى وتقول: أنّىٰ لي به، وأنا أنا.

بل أقول لك: لا تجعل بناء أمرك على الإخلال بجزئي مسامحة ومساهلة، فأما إذا وقع منك الإخلال بأمرٍ لغلبة الهوى ومخادعة النفس والشيطان، فذلك أمر آخر، وذلك من شأن غير المعصوم، فمقصودنا توطين النفس على عدم المسامحة والمساهلة.

فهذه الجزئيات من الشرع عند المواظبة عليها وترك التسامح والتساهل فيها تفيد الترقّي والوصول الى المقامات الرفيعة العالية، فإنّ الله سبحانه قد جعلها بإذنه مفاتيح تلك الخزائن، ومن قبض مفاتيح الخزائن بيده استغنى وفاز فوزاً عظيماً.

ولولا خشية الإطناب لأوضحت إيضاحاً شافياً، وأكثرت الشواهد عليه، وهو حقيق بذلك، فإنه أتقن وأضبط باب يفتح منه ألف باب من الحكمة الإلهية، وعسى أن نزيده بياناً في الأبواب الآتية إن شاء الله.

البـــاب الثـانـي

في رجحان الخوض في علم الأخلاق وصرف برهة من العمر فيه

إعلم أنه اشتبه الأمر على جملة من الصلحاء الأبرار والأخوان الصافين من الأكدار من أهل المجاهدة للنفس الأمارة بالسوء، فإنهم لما رآهم الشيطان (لعنه الله) في مقام المجاهدة للنفس ـ الذي هو أفضل الجهاد حتى سماه النبي صلى الله عليه وآله (الجهاد الأكبر) ـ أراد أن يخدعهم عن ذلك فألقى في روعهم شبهة عظيمة من شبهه.

هي: أنّ ملاحظة المواعظ والنصائح والتذاكر بها وطلب العثور عليها والتدبر لها ـ ما هو قوام علم الأخلاق ـ أمر لا راجحيّة فيه.

فإن مع ما نرى من أنفسنا من العمل بخلاف ما نعلم يكون وبالاً وزيادة في إقامة الحجة على العبد، فيكون التغافل والتناسي مع هذا الحال أحق وأحرى، فإن ذنب العالِم ليس كذنب غير العالم، وأنه كلما قل علم الإنسان واطلاعه على التحذيرات وأنواع التهديدات يكون أقل إمتراء، وأقرب الى المعذورية، وانه ليس من لا يعلم كمن يعلم.

وإني لمّا سمعت منهم هذا المعنى وعلمت أنه من خدع

الشيطان الرجيم (لعنه الله) نبهتهم على رواية رواها الشيخ الحر في «الجواهر السنية في الأحاديث القدسية»، وفيها قمع هذه الشبهة من أصلها وإبطالها من رأسها.

ومعنى الرواية أن الله سبحانه يقول: لا تقولوا: نخاف أن نعلم ولا نعمل، ولكن قولوا: نعلم ونرجوا أن نعمل، فإني ما أتيتكم إلا وأنا أريد أن أرحمكم بها[1].

وهذا الخطاب الإلهي أقمع هذه الشبهة، ولولا مخادعة الشيطان لما كان محلاً للاشتباه حتى يحتاج الى الإزالة، ولكن كفى بهذا البيان الإلهي قامعاً.

ونزيدك بياناً تعرف به جلية المسألة في العلم والعمل وثمرة كل منهما، ويتجلى لك ما وضع لأجله الباب من رجحان هذا العلم وثمراته فنقول:

إنه من المعلوم أنه لا نفع للعلم بدون العمل، كما لا نفع للعمل بدون علم، ولكن العبد مأمور بكل منهما وكل واحد منهما يؤكد صاحبه ويقوّيه.

فمن اتخذ العلم لا للعمل بل ليفتخر به، ويستر بمحاسن العلم وشيوع الجمال وبهائه بين الناس قبح أفعاله وخصاله القبيحة، فلا شك أن هذا قرين إبليس اللعين، وعلمه وبال عليه، وعلى غيره، وان أهل النار يتأذون به، وهو من الذين يحملون أثقالهم، وأثقالاً مع أثقالهم، وهو شيطان في صورة إنسان ـ نعوذ بالله منه ـ.

---

(١) الجواهر السنية: ٩٤ باختلاف.

وكذا من اتخذ العلم عادة اعتادت عليها نفسه، ورياء وسمعة بهذه الصورة الممدوحة بين الناس من دون بصيرة ولا معرفة، فهذا حمار مربوط ملحق بالأول وإن كان أقل منه ضرراً على العباد.

وأما من كان عاقلاً فهماً وطلب ما به صلاح نفسه وسعادته في داريه، وهو المتوجه الى الله الطالب ما عند الله، وهو المقصود بخطابات هذا الفن لتربيته وترقّيه فيما هو طالب له، فليعلم أنه كلما انفتح له باب من العلم سهل له العمل به وزاده نشاطاً ورغبة فيه، وكلما عمل بما علّمه الله من العلم أورثه ذلك علم ما لم يعلم، وزاد في علمه، كما في أخبار أهل البيت عليهم السلام حيث قالوا: أنه من عمل بما علم أورثه علم ما لم يعلم.

فيكون في الحقيقة عمله نوعاً من العلم حيث أنه مورث له ومحصل له، فيدخل تحت طلب العلم الذي تواترت الروايات بفضله ومدحه.

كما أن علمه وتعلمه وتعليمه من أفضل أفراد العلم، فعند ذلك تتم للعبد السعادة بالعلم الباعث على العمل، والعمل المنبعث عن العلم، والسعادة وإن تمت بالمجموع المركب من العلم والعمل إلا أن أفضل الجزءين عند الله إنما هو العلم، وبه يقع التفاضل بين الأولياء.

قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: مسحة من المعرفة خير من كثير من العمل، وما هما إلا كالنيّة والعمل والفضل للنيّة، وكالروح والجسد والفضل للروح.

وفيما ذكرناه كفاية لمن طلب الهداية والله ولي التوفيق.

البـــاب الثالـث

في بيان ان الله خلقنا للسعادة الدائمة
أعدّها لنا وأعدّنا لها

إعلم أن الإنسان خلق للحياة الدائمة والعيش السرمدي، وعمر الآخرة لا نهاية له، وقد جعل الله هذه الدنيا مزرعة للآخرة، ورتّب الجزاء في الآخرة على الأعمال في هذه الدنيا، فكـان تأهّـل العباد لتلك السعادة الأبدية بهذه الأعمال الدنيوية.

ولا ريب ان هذه الأعمار القصيرة والمدة القليلة لو استغرقت بالعبادة بحيث لم يعص الله فيها طرفة عين، ولم يصرف مقدار نفس من الأنفاس إلا في طاعة الله فهي مع ذلك قاصرة وناقصة بالبداهة والضرورة عن الأهلية للمقابلة ومقام المعاوضة والمجازاة.

فلا بد بمقتضى الرأفة الالهية والرحمة الربـانيّة أن يفتـح لهم أبواباً من أبواب كرمه يؤهّلهم بها لمقام الجزاء بما لا انقضاء له ولا فناء، إذ كل نعمه ابتداء، وكل احسانه تفضّل.

فأول ما تفضّل به عليهم بجوده وكرمه أن جعل أعمـالهم غير منقطعة بانقطاع آجالهم، ولا منتهية بـانتهاء مـددهم، بحيث جعلها يمكن أن تكون منطبقة على عمر الدنيا، ومستغرقة لأيام العمل ووجود

العاملين، وذلك بأن جعل من أحكام دينه التي حكم بها أن من سنّ سنة هدىً فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، كما أن من سنّ سنّة ضلالة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة.

وكذلك جعل من أحكامه أن الوالدين شركاء مع أولادهما فيما يعملون من أعمال الخير بمقتضى التسبب والعلية للوجود، وهذه سلسلة غير منقطعة.

وكذلك جعل ثواب بعض الأعمال أن يخلق منها ملائكة يعبدون الله الى يوم القيامة ويكون ثواب عبادتهم لصاحب العمل.

وكذلك فتح لهم باب التنزيل، فنزّل العمل ليلة واحدة بمنزلة العمل في ألف شهر، بل أخبر الله سبحانه فقال: **﴿ليلة القدر خير من ألف شهر﴾**[1].

وجعل تفكر ساعة بمنزلة عبادة ستين سنة[2]، على ما في بعض الروايات.

وجعل مبيت ليلة عند أمير المؤمنين عليه السلام تعدل عبادة سبعمائة سنة.

وجعل قضاء حاجة المؤمن يعدل عمل تسعة آلاف سنة صائماً نهارها قائماً ليلها[3].

وجعل صيام ثلاثة أيام من كل شهر قائمة مقام صيام الدهر.

---

(١) سورة القدر، آية: ٣.

(٢) البحار ٧١: ٣٢٧ وفيه: سنة.

(٣) البحار ٧٤: ٧٢/٣١٥.

كل ذلك تعطفاً منه على عباده المؤمنين وتفضّلاً ليؤهلهم لأن يوصلوا إلى رتبة استغراق عمرالدنيا بالطاعة، حتى يكون لهم شوق التأهل بهذه المرتبة النفيسة بجوده وكرمه.

ثم ذلك قليل في جنب ما يريد أن يؤهلهم عن استغراق مدة الأمد والسرمد بالعبادة والطاعة له عزَّ وجلَّ، فأكمل لهم الامتنان ليتم لهم الأنعام بأن فتح لهم باب الجزاء على النية التي هي خير من العمل، فجعل نيات المؤمنين أن لو خلّدوا في الدنيا لداموا على طاعتهم لله عزَّ وجلَّ فأثابهم على ذلك ثواب الدائمين على طاعته وجعل جزاءهم على هذه النيات الخلود في الجنة.

كما أن الكفار بسوء نياتهم وأنهم لو داموا لداموا على معصيته جعل جزاءهم الخلود في عقابه.

فيا أيها الأخ المسترشد إعلم أن أعمالك مبنيّةً على الدوام لا على الانقطاع، وإن كنت تراها منقطعة، ففي بعض الأخبار: أن السعيد من ماتت سيئاته بموته.

يعني من سعادته أن لا يُعمل بها بعده، وإلا فإذا عمل بها اقتداء به واقتداء بمن اقتدى به كان عليه وزرها الى يوم القيامة.

فالمعصية والعياذ بالله مقتضاها التسلسل. . . إلا أن يتعطف الله بمحوها وإزهاقها.

فاحذر كل الحذر من المعاصي فقد تؤثر في الأعقاب وفي اعقاب الأعقاب، وارغب في الطاعات فإن ما كان لله ينمو، ومن نموه أن يؤثر بعده الى آخر الدهر، وفي الأعقاب وأعقاب الأعقاب إلى يوم القيامة، فتيقّظ ولا تكنِ من الغافلين.

البـــاب الـرابـع

في ذكر بعض الطرق الى الله تعالى

إعلم أن الطرق الى الله بعدد أنفاس الخلائق، فلكل أحد من الخلق طرق الى الله بعدد أنفاس كل الخلائق، والشقي من ضاقت عليه رحمة الله التي وسعت كل شيء.

واعلم أنه لا طريق أنجح من حسن الظن بالله، فإنه في ظن عبده المؤمن إن خيراً فخير وإن شراً فشر. . .

والناس قد عودوا أنفسهم بمقتضى تسويل النفس والشيطان على سوء الظن بربهم، ومسارعة أذهانهم الى التفاؤل بالسوء واليأس من الفرج بمجرد مشاهدة آثار الابتلاء، والتخوف من شدة البلاء، متيقنين في ذلك، فيقعون فيما فروا منه، ويجري عليهم ما تفاءلوا به من البلاء، فإنه والعياذ بالله نوع من سوء الظن.

وقد عرفت أنه بسوء الظن يتأهل العبد لأن يعامل بسوء ظنه، إلا أن يعفو الله سبحانه.

والنبي صلى الله عليه وآله كان يحب التفاؤل بالخير، ويكره الطيرة.

والطيرة على حسب ما يراها صاحبها، إن رآها شديدة كانت شديدة، وإن رآها خفيفة كانت خفيفة، وإن لم يرها شيئاً لم تك شيئاً[1]، كذا في خبر في (روضة الكافي).

فيجب على المؤمن المقتفي آثار أهل البيت أن يعوّد نفسه على حسن ظنّه بربه، فيرجو من الله بالقليل الكثير، فهو سبحانه الذي يُعطي الكثير بالقليل وكلما تؤمله منه وتظنه به سبحانه وتعالى من أصناف الخير وكرمه فوق ذلك، وظنك له نهاية، وكرمه سبحانه لا نهاية له، وهو سبحانه قد أخبرك بأنه في ظنك الحسن، وعند ظنك الحسن، وقد قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: من ظن بك خيراً فصدق ظنه[2].

فإذا كان حكمه على عباده الجاري على لسان أوليائه أن يصدّقوا ظنّ من ظنّ بهم خيراً ويحققوا ظنّه فهو سبحانه عز وجل أولى بذلك.

بل يستفاد من الأخبار وتتبع الآثار أن كل من يحسن الظن بشيء يصدق الله ظنه، ويجري له الأمر على وفق ظنه الحسن، وكأنه من أفراد حسن الظن بالله، اذ معنى ظنّ الخير بهذا الشخص يرجع الى الظن بأن الله أودع فيه ذلك الخير للمقدمة المطوية المعلومة من أن كل خير من الله فالله سبحانه يصدق هذا الظن.

وقد جاء خبر صريح بأن من ظن بحجرٍ خيراً جعل الله فيه سرّاً

---

(١) روضة الكافي: ١٩٧/٢٣٥.

(٢) البحار ٧٧: ٢١٠.

فقال له الراوي: بحجر! فقال له الإمام عليه السلام: أو ما ترى الحجر الأسود.

فيستفاد من هذا أن الله سبحانه وتعالى يصدق الظنون الحسنة من المؤمنين من بعضهم في بعض ويحقق لهم ذلك.

ومن ذلك تصديق شهادة من يشهدون للميت بأنهم لا يعلمون منه الا خيراً، للتنبيه على حسن الظن بل على عدم العلم بغير الحسن. وقد ورد الحديث بأن الله يجيز شهادتهم ويغفر لهم وله ما يعلم لما لا يعلمون.

فمقتضى حسن الظن أن يجريه الله للظان ولمن ظن به الخير إلا أن يمنع مانع قوي من جريانه في من ظن به، فيجريه الله للظان.

كما في بعض الأخبار أنّ الرجل قد يكرم رجلاً على أنه من أهل الخير فيدخله الله بذلك الجنة، وان كان في علم الله أن ذلك المكرم من أهل النار، فهذا مما منع فيه المانع القوي من إجراء الظن في من ظن به فأجري للظان.

والحاصل أن من امتثل ما أُمر به من حسن الظن لاخوانه المؤمنين لا يخيب إذ هو إما أن يصدق ظنه ويقلب الأمر على وفق ظنه برحمة الله أو يجري له ظنه في حقه ولا يضره تخلف ذلك في المظنون به الخير.

وهذا باب عظيم في حسن الظن بالمؤمنين، ولعله على هذا ابتني الأمر في قبول صلاة الجماعة، فإن المأمومين أحسنوا الظن بالإمام وجعلوه واسطة بينهم وبين الله في قبول صلواتهم، فأعطاهم الله ذلك فقبل صلاة الجميع بحسن الظن به.

الى غير ذلك من موارد حسن الظن كالذي يشرب من سؤر المؤمن تبركاً به، وكماء زمزم فإنه لما شرب له، قال الشهيدان: وقد شربه جملة من الأكابر لمقاصد دينية ودنيوية فنالوها[1].

فلا تغفل عن أخذ حظك من حسن الظن.

وقد ورد في الدعاء جعله من أفضل الأرزاق التي تطلب فقال: اللهم ارزقني اليقين، وحسن الظن بك.

وقد ورد في الحديث ما هو أبلغ من ذلك وهو أنّ الله يجيز دعوى حسن الظن وإن كانت كاذبة.

فعن الصادق عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة جيء بعبد فيؤمر به الى النار فيلتفت، فيقول الله سبحانه وتعالى: ردّوه.

فلما أتى به قال له: عبدي لِمَ التفتّ إليّ؟

فيقول: يا رب ما كان ظنّي بك هذا!

فيقول الله جل جلاله: فما كان ظنّك؟

فيقول: يا رب كان ظنّي بك أن تغفر لي وتسكنني برحمتك جنتك.

قال: فيقول الله جل جلاله: يا ملائكتي، وعزتي وجلالي وآلائي وبلائي وارتفاعي في مكاني ما ظن بي هذا ساعة من خير قط، ولو ظنّ بي ساعة من خير ما روّعته بالنار، أجيزوا له كذبه وأدخلوه الجنة. انتهى الحديث[2].

---

(١) شرح اللمعة الدمشقية ٢: ٣٢٩.

(٢) الجواهر السنية: ٢٧٠.

فتأمل فيه ترى ما لا يوصف، وبهذا الحديث الشريف وملاحظة أمثاله من مظان المواهب الالهية والنفحات الربانية يتقوى جانب من أن يكون ما عندنا من الظنون الحسنة والآمال بمواهب ذي الجلال مندرجة تحت حسن الظن بالله، إذ هي إن لم تكن منه فلا أقل من أن تكون من أفراده الأدعائية، وقد عرفت إنه بكرمه يجيزها ويعاملها معاملة الافراد الحقيقية، وحكمه في الدارين واحد، «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت»[1].

واعلم أن حسن الظن ليس مقتضاه الخلود الى الراحة وترك العمل معللاً بحسن الظن بالله، فإن هذا من خدع الشيطان الرجيم - أعاذنا الله منه وجميع المؤمنين بمحمد وآله الطاهرين - بل مقتضاه الانجذاب الى ما عند الله وشدة الرغبة في مواهب الله، فإن من أنس بمواهب الله جذبه الطمع، وهانت عنده الشدائد، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

وعن مولانا الرضاعليه السلام قال: إن الله أوحى الى داود عليه السلام قال: إن العبد من عبادي يأتيني بالحسنة فأدخله الجنة.

قال: يا رب، وما تلك الحسنة؟

قال: يفرّج عن المؤمن كربة ولو بشق تمرة.

فقال داود عليه السلام: حق لمن عرفك أن لا ينقطع رجاؤه منك»[2] انتهى.

---

(١) سورة الملك، آية: ٣.

(٢) عيون اخبار الرضا ١: ٨٤/٣١٣ وعنه الجواهر السنية: ٧٩.

فإذا كان عز وجل يعطي هذه الجنة العظيمة التي عرضها السماوات والأرض بشق تمرة، وفي بعض الروايات أنه يحكم بالجنة بشق تمرة.

فبالله عليك كيف يسوغ ترك المعاملة مع هذا الكريم، والتغافل عن معاملته طرفة عين؟ وبأي شيء يستبدل عنه؟ ومن فاتته لحظة لم يقبل فيها على الله فأي شيء يكون عوض ما فاته؟! هيهات هيهات، لقد فاته شيء لا عوض له، وغبن غبناً لا جبر له.

ومن أجل هذا المعنى وشدة رأفة الله بعباده المؤمنين جاءت الشريعة الغراء بترتيب المثوبات العظيمة على حركات المؤمنين وسكناتهم، وحتى علّم علي بن الحسين عليه السلام شيعته الدعاء بقوله:

«اللهم اجعل همسات قلوبنا، وحركات أعضائنا، ولمحات أعيننا، ولهجات ألسنتنا في موجبات ثوابك».

وقال عليه السلام في بعض أدعيته:

«وأستغفرك من كل لذة بغير ذكرك».

فمراد الله سبحانه في عباده المؤمنين أن لا يخسروا خسراناً لا جبر له بالغفلة عن معاملته وفقد اجرته طرفة عين.

ولهذا جعل الطرق إليه بعدد أنفاس الخلائق بحيث أنّ «من شرب الماء وذكر الحسين عليه السلام وأهل بيته ولعن قاتله كتب الله له مائة ألف حسنة، ومحى عنه مائة ألف سيئة، ورفع له مائة الف

درجة، وكان كأنما أعتق مائة ألف نسمة وبعثه الله يوم القيامة ثلج الفؤاد»[1].

أترى صاحب هذا العطاء، والمُعد لهذا الجزاء يرضى أن يضيع على عبده ـ المحتاج إليه وهو الغني المطلق ـ نفساً من أنفاسه؟!

حاشا وكلا! بل يريد من هذا العبد المسكين أن يكون مقبلاً على ربه حيث انه لا خير إلا عنده، ولا شرف إلا في الأقبال إليه فإذا أقبل هو على الله أقبل هو عليه، وإذا أقبل عليه عامله بفضله وكرمه وهداه لأن يقصد بكل خطراته وحركاته وسكناته ونومه ويقظته رضاء ربه بما يقتضيه كرمه وجوده ومنّه.

ومنه ما عن الباقر عليه السلام قال: إن الله أوحى إلى داود عليه السلام: بلّغ قومك أنّه ليس من عبد منهم آمره بطاعتي فيطيعني إلا كان حقّاً عليّ أن أطيعه وأعينه على طاعتي، وإن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبته، وإن اعتصم بي عصمته، وإن استكفاني كفيته، وان توكّل عليّ حفظته من وراء عوراته، وإن كاده جميع خلقي كنت دونه. انتهى[2].

وكذلك تأتي رأفته البالغة ورحمته الواسعة أن يبالغ في تحذير عبده المسكين عن التخطي إلى ما لا يعنيه فضلاً عما يضره.

وفي بعض الخطابات القدسية على ما في (الجواهر السنية): «يا ابن آدم اذا وجدت قساوة في قلبك، وسقماً في جسمك، ونقصاً

---

(١) الكافي ٦: ٣٩١.

(٢) الجواهر السنية: ٧٤

في مالك، وحريمة في رزقك فاعلم أنك قد تكلمت فيما لا يعنيك»[1].

وهو الفضول من الكلام، فضلاً عن المحرم فهو أضر على الإنسان من السم، إذ منتهاه أن يؤثر في الجسم، والفضول من الكلام يؤثر قساوة في القلب، والنقيصة في المال، والحرمان في الرزق مع السقم في الجسد، فكيف يرضىٰ له الرب الرؤوف بأن يعرض نفسه لهذه المهلكة العظيمة.

بل ورد أن الله سبحانه يحاسب العبد على فضول النظر كما يحاسبه على فضول الكلام.

فمن أجل أنه لا يريد أن يضيع على عبده البائس المسكين نظرة من نظراته جعل له النظر الى وجه العالم عبادة، والنظر الى الكعبة عبادة، والنظر إلى ذرية رسول الله صلى الله عليه وآله عبادة، والنظر الى المخلوقات بعين الاعتبار عبادة، وأي عبادة! فإنه التفكير الذي ساعة منه تعدل عبادة ستين سنة، **﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾**.[2]

وعن الصادق جعفر بن محمد بن علي عن أبيه عن آبائه عليهم السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «أوحى الله تعالى الى داود عليه السلام: يا داود، وكما لا تضيق الشمس على من جلس فيها كذلك لا تضيق رحمتي على من دخل فيها، وكما لا تضرّ الطيرة من لا يتطير، كذلك لا ينجو من الفتنة المتطيّرون»[3] انتهى.

---

(١) الجواهر السنية: ٦٦.

(٢) سورة البقرة، آية: ١١٥.

(٣) الجواهر السنية: ٧٧.

وهذا الخطاب الالهي القدسي من أكبر وأعظم الشواهد على ما أصّلناه من أن المتطير لسوء ظنّه بربّه لا ينجو من الفتنـة، فيقع في الهلكة، ومن لا يتطيّر لحسن ظنّه بربّه لا تضرّه الأشياء التي يُتـطيّر منها، وتُدفع عنه ببركات حسن الظن بالله.

ومن دخل في رحمة الله بالانقطاع الى أخبار أهل البيت عليهم السـلام واقتفى آثارهم لم تضق عليـه بل لا تـزال تتسع وتنفتـح له الأبواب التي كل بـاب ينفتح منـه ألف باب حتى يـوصله الى مقام انشراح الصدر بنور العلم والمعرفة، وهو من أفضل ما اثنى الله على نبيه صلى الله عليه وآله حيث يقول: ﴿**ألم نشرح لك صدرك**﴾[1].

فإذا مَنَّ الله عليه بالوصول الى هذه الـرتبة فهـو من الذين لا يصلهم بلاء الدنيا، ولا بلاء الآخرة، وبمعنى أنه لو أصابه نوع من البلاء فهو عند غيره بلاء، وبحسب نظر الناس، والا فهو عنـده في جنب ما عرّفه الله من إيصاله الى رضاء الله، وبحسب ما يطلب منه من المراتب السامية عند الله تعالى، من أكبر الملاذ وأهنأ العطاء.

ولذا كان بعض خواص الحسين عليه السلام من أهل الـطف كلما اشتد عليهم البلاء تشرق وجوههم، وتستبشر نفوسهم، رزقنا الله وإياكم هذه المقامات، وأين أبناء الملوك عن هذه اللذات، وحسبنا الله ونعم الوكيل ونعم المولى ونعم النصير.

---

(١) سورة الإنشراح، آية: ١.

البـــاب الخامـــس

في ايضاح عجز الإنسان من حيث هو، وعلو شـأنه من حيث ارتباطه بالمبدأ الأعلى وتعلقه به

أيها الأخ الغافل عن إصلاح نفسه والمتغافل عن حقيقة أمره إنّ لك أيّها المسكين جهتين واعتبارين أحدهما ىن حيث نفسك وذاتك ومن حيث أنت أنت، وإلى هذه الجهة غالب نظرك وملاحظتك، وأنت من هذه الجهة فانٍ مضمحل زائل لا قدر لك ولا قيمة ولا اعتداد بك، ولا مبالاة بك ولا احتفال، بل لست شيئاً مذكوراً.

والجهة الثانية لك من حيث أنك متعلّق القدرة الإلهية، ومظهر العظمة الربانية، ومخلوق لهذا الخالق العظيم الشأن عزَّ وجلَّ، وبهذه الجهة صرت مرتبطاً بكل العالم من العرش الى الثرى، ومن السماء السابعة العليا إلى الأرض السابعة السفلى، فضلاً عما بين المشرق والمغرب وجميع من في أقطار الأرض.

فإن أنت فعلت بنفسك خيـراً أثّرت في جميـع العالم خيـراً، وبالعكس، فإن أشكل عليك ذلك فإنّ لك مثالاً تحت العرش يعمل مثل ما تعمل، فإن عملت قبيحاً القى الله على مثالك ستراً وغطاه لئلا تفتضح عند أهل العرش.

وإن عملت حسناً أظهره الله لهم وهو معنى قوله: «يا من أظهر الجميل وستر القبيح» على ما رواه شيخنا البهائي في مفتاحه عن الصادق عليه السلام أنه قال:

ما من مؤمن إلا وله مثال في العرش، فإذا اشتغل بالركوع والسجود ونحوهما فعل مثاله مثل فعله فعند ذلك تراه الملائكة فيصلون ويستغفرون له، وإذا اشتغل العبد بمعصية أرخى الله على مثاله ستراً لئلا تطلع الملائكة عليها[1].

وكذلك لا شك أن أعمالك كل يوم، وكل صباح، وكل مساء، تعرض على النبي صلى الله عليه وآله وعلى الأئمة عليهم السلام، خصوصاً صاحب العصر ـ عجل الله فرجه ـ ولي الأمر.

فما كان منها حسناً سرّهم، حتى قال أحدهم: والله لرسول الله صلى الله عليه وآله أسرّ بالحاجة يقضيها المؤمن لأخيه من صاحب الحاجة[2].

ولا شك أن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته أقطاب العالم وأركانه، والعالم كله رعية، من الملائكة وغيرهم، فمن أدخل السرور على سلطان العالم فقد أثر في الرعية كلها سروراً تبعاً لسرور الملك والسلطان، فيضج العالم بالدعاء لهذا العبد المحسن: سرّك الله كما سررتنا.

وإن أساء أساء النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته، ولذا تجف الأشجار وتفسد الثمار وتقل الأمطار وتغلى الأسعار.

---

(١) مفتاح الفلاح: ١٥٦.
(٢) الكافي ٢: ١٠/١٥٦.

وقد بان لك أيها المسكين تأثير طاعتك ومعصيتك في كل العالم فضلاً عن خصوص الملائكة الموكلين بك، وفضلاً عما تقدمت الاشارة اليه من تأثير الطاعة والمعصية في الأعقاب، وفي أعقاب الأعقاب، ومن وصول النفع لكل المؤمنين ممن مضى وممن بقي ممن يقول: اللهم إغفر للمؤمنين والمؤمنات حتى ورد: أن جميع المؤمنين والمؤمنات يشفعون لمن يقول ذلك ويقولون: هذا الذي كان يستغفر لنا[1].

ورد في الأخبار: أنّ العالم يستغفر له من في السماوات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحار[2].

وقال سبحانه: ﴿**الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا**﴾ ـ الآية[3] ـ ولا يخفى أنّ من يكون مجتهداً مشهوراً ينتفع بتقليده من في المشرق ومن في المغرب، كما ينتفعون بكتبه ومصنفاته وسائر أنواع هدايته وإرشاداته في حياته وبعد وفاته.

فإذاً قد ظهر لك سريان تأثيرك في كل العالم من الجهة الثانية فيك، وكونك متعلّق القدرة الإلهيّة، ومظهر العظمة، فكيف يسوغ أيها المسكين غفلتك وتغافلك، ملتفتاً الى الجهة الأولى التي لست بها شيئاً مذكوراً!

ولقد صدق مولانا أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول:

---

(١) الوسائل ٤ : ٢/١١٥١.
(٢) الكافي ١ : ١/٣٤ وفيه: طالب العلم..
(٣) سورة غافر، آية: ٧.

دواؤك فيك ولا تبصر   وداؤك منك ولا تشعر
أتحسب أنك جرم صغير   وفيك إنطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي   بآياته يظهر المضمر

ولئن أهملت نفسك فما ربك بمهمل لك،قال الله تعالى **﴿أيحسب الإنسان أن يترك سدى﴾**[1].

فتيقّظ أيها الغافل والحظ الجهة الثانية التي صرت بها إنساناً، وكذلك سمّاك ربك، فإن كنت ترى نفسك من أهل الشقاوة، وعن السعادة نائياً، فاعلم أيها المسكين أنّ الله يمحو ما يشاء ويثبت، وعنده ام الكتاب.

واحذر أن تكون شيطاناً في صورة إنسان، واعلم أنك إن اخترت لنفسك ذلك فقد أضعت توجه العناية الإلهية إليك، وأفسدت العالم كله بفسادك، وكدّرت قلوب الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، وجميع أهل السمٰوات والأرضين، وضجت الأرض الى الله من مشيك عليها، والسماء من استظلالك بها.

وورد أن الأرض تضج الى الله من بول الأغلف أربعين صباحاً[2]، وهو فعل مكروه من المكروهات فكيف بك؟

وبالجملة يا مسكين أنت مبارز لله، وجميع من هو ملك لله تعالى أعداء لك، فأين تذهب عن ملكه، وجميع مخلوقاته تطلب الأذن منه بالانتقام منك، فأنّى بمقاومتها كلها، وأنت الضعيف الحقير، ومن يؤويك وقد بارزته وحاربته فلا مفرّ لك منه إلا إليه

---

(١) سورة القيامة، آية: ٣٦.
(٢) البحار ١٠٤: ١١٠/١٦

﴿ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين﴾[١].

وكلّ من خاف من أحد هرب منه إلا الخائف من الله فإنه يهرب اليه، فإن أنت هربت إليه عز وجل فاستمع لما رواه الصادق عليه السلام عن جده رسول صلى الله عليه وآله عن الله عزَّ وجلَّ أنه يقول: لا أطلع على قلب عبد فاعلم فيه حب الاخلاص لطاعتي، وابتغاء وجهي، إلا تولّيت تقويمه وسياسته[٢].

وعن النبي صلى الله عليه وآله عن الله عزَّ وجلَّ قال: إذا علمت أن الغالب على عبدي الاشتغال بي نقلت[٣] شهوته في مسألتي ومناجاتي، فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو حلت بينه وبين أن يسهو، أولئك أوليائي حقاً، أولئك الأبطال حقاً، أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض بعقوبة زويتها عنهم من أجل اولئك الأبطال[٤].

انتهى هذا الحديث الشريف، أنظر إليه كيف اشتمل آخره على أن الله كيف يدفع العقوبة والهلكة عن أهل الأرض بوجود اولئك الأولياء، فنفس وجودهم صدقة عن العالم حيث كان باعثاً على حفظهم من الهلكة.

وبالجملة فهذا العالم مرتبط بعضه ببعض، وهو بمنزلة الشخص الواحد إذا دخل ألم في عضو من أعضائه سرى إلى الكل، فإذا نزل

---

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٠.
(٢) الجواهر السنية: ١٣٣.
(٣) في الجواهر: يقلّب. راجع عدة الداعي.
(٤) الجواهر السنيّة: ١٣١.

ذلك الألم عن ذلك العضو فقد أراح الكل من ذلك الألم.

وورد في الحديث أنّ العبد إذا حمد الله شمله ذلك الدعاء من كل المصلين، لأن المصلين يقولون: «سمع الله لمن حمده»[1].

فانظر إلى العبد كيف ارتبط بكل المصلين في العالم، ودخل تحت دعائهم بكلمة واحدة.

كذلك من عمل عملاً بإتقان دخل تحت دعاء النبي صلى الله عليه وآله بقوله: رحم الله من عمل عملاً فأتقنه[2].

ولا ريب أنّ دعاء النبي صلى الله عليه وآله مستجاب ومن أدركته الرحمة من الله نجى من الهلكة.

ومن في هذا العصر يتمنون ويشتاقون أن يكونوا في عصر النبي صلى الله عليه وآله حتى تدركهم منه دعوة، ويتخيلون أن هذا أمر قد فات، ولا تدارك له، وهو اشتباه، فإن تعرضهم لدعاء النبي صلى الله عليه وآله، ووصوله اليهم ممكن في هذا العصر بأيسر وجه كالذي قلنا: من عمل عملاً بإتقان فيدخل تحت دعاء النبي صلى الله عليه وآله بالرحمة.

ومن كان يصوم يوماً من شعبان مثلاً فيدخل تحت دعاء النبي صلى الله عليه وآله بقوله: شعبان شهري رحم الله من أعانني على شهري[3].

---

(١) الوسائل ٤: ٢.

(٢) كنز العمال: ٩١٢٨ مثله.

(٣) الوسائل ١٠: ٢٢/٤٩٢ (١٣٩٣٤).

وحاشا النبي صلى الله عليه وآله أن يحرم أهل هذا الوقت من بركات دعائه الشريف، بل وقد وضع أدعية شريفة لأهل عناوين عامة فمن شاء أدخل نفسه تحت عنوان من تلك العناوين الشريفة فيشمله ذلك الدعاء المستجاب.

أنظر إلى نفسك يا أخي كيف عرّضك لرحمته بالدخول تحت هذه العناوين الشريفة التي هيأت لك لأن تدخل نفسك فيها، وأنت بغفلتك وتغافلك تريد أن تدخل نفسك تحت عناوين خبيثة يتوجه اليك كل من في العالم بالدعاء عليك.

فإنه من كدّر مؤمناً من المؤمنين كدّر رسول الله صلى الله عليه وآله لذلك، ثم علياً عليه السلام، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم الأئمة عليهم السلام، ثم من في العالم كلّه، فيضج عليك العالم ضجة واحدة: كدّرك الله كما كدرتنا.

فيا أخي شأنك عظيم، وخطرك جسيم، وأنت بين حالتين، في كل أطوارك وأحوالك، إما أن تُقبل على الله أو تعرض عنه، فإن أقبلت عليه أقبل هو عليك، وإن أعرضت عنه أعرض عنك، وأعرض لأعراضه عنك كل شيء، وأنت بينهما لا تنفك عنهما.

فيا من هو على المقبلين عليه مقبل، وبالعطف عليهم عائد متفضّل، أرزقنا اللهم التوفيق لما يوجب دوام الأقبال عليك، ودوام إقبالك علينا، وحسن أدبنا بين يديك إنك أرحم الراحمين وصلى الله على محمد خير خلقه وآله الطيبين الطاهرين.

---

(١) الكافي ١: ٩٠/٥.

البـــاب الســـادس

في الأمور المستفادة من الحقيقة الواضحة
كل شيء يهون بالنظر لما فوقه
وكيف يسلك عباد الله
الطريق اليه

إعلم أنّ كل شيء يهون بالنظر الى ما فوقه، وما هو أشد منه، بل يضمحل ويفنى ولا يكون شيئاً مذكوراً.

كالذي تشوكه شوكة فيلدغه عقرب، فلا ريب أن الشوكة تكون عنده نسياً منسياً، ولا ذكر لها عنده بوجه من الوجوه، فالباري سبحانه وتعالى قد قهر كل شيء من الأشياء بوجود ما فوقه.

أنظر الى عظمة أمير المؤمنين عليه السلام، وشدة بأسه وبطشه، وبلوغه في كل كمال أقصاه ومنتهاه، كيف يتصاغر عند ذكر محمد صلى الله عليه وآله، ويقر على نفسه بالعبودية حيث قال: أنا عبد من عبيد محمد صلى الله عليه وآله[1].

وهذه قاعدة محسوسة في سائر الممكنات والموجودات، فإذا أردت أن تهون عليك الدنيا وشدائدها فانظر إلى ما هو أشد وأصعب، وتأمل أن لو أضيف إلى ما أنت فيه شدة أخرى مما هو أشدّ عليك

---

(١) الكافي ١: ٩٠/٥.

كيف كنت تصنع، فحينئذ يهون عليك ما أنت فيه بالنسبة إلى ما هو فوقه، وترى تلك الحال نعمة وتقول: الحمد لله الذي لم يشدده علي، ولو شاء لفعل.

وكذلك إذا أردت آن يهون عليك استحسان ما يتفق لك من الأعمال الحسنة، بحيث تخلص من الابتهاج الذي هو مادة العجب والافتخار، فانسبه الى ما هو فوقه من الأعمال الحسنة مما يعملها من هو فوقك، ومن هو أحسن منك.

أو أنت إذا ترقيت عن المقام الذي أنت فيه، فإنك ترى ذلك العمل ذنباً وتقصيراً يحتاج إلى الاعتذار، وتستحي من نسبته الى نفسك، فضلاً عن إفتخارك وابتهاجك به.

وأنت إذا اعتدت هذه الحالة بإذن الله الكريم المتعال سرت إلى الله بلا انقطاع، إذ ليس لمحبته غاية ولا نهاية، إذ كلما تدرجت إلى مقام في الإخلاص والعمل شاهدت مقاماً أعلى وأبهى وأسنى وأرفع.

فإن كنت تريد النهاية به فليس هناك نهاية تصل اليها، وتقف عندها، وإن كنت تريد الوقوف من دون مانع عن الترقي فلا يسوغ لك ذلك، إذ الكريم سبحانه يستدعيك بلطفه وجوده إلى القرب منه، فبأي شيء تستبدل منه! وإلى أي شيء تتحول عنه! لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك متحولاً.

فحيث اتضح بصريح العقل أنه لا بد من السير الى الله بسلوك سبيل طاعته بلا انقطاع، فاعلم أن ذلك إنما يتم لك بأن تكون في وقوفك عن الطاعة ملاحظاً وجهاً آخر من وجوه الطاعة، فإن الله سبحانه يحب الأخذ برخصته، كما يحب الأخذ بعزائمه.

فمن يكون طالباً لمحبة الله سبحانه وتعالى يفتح الله له هذا الباب بأن يجعل فعله للعبادة المندوبة الراجحة جالباً لمحبته عز وجل فإنها بالذات كذلك، وكذلك يحصل بتركه لها في مقام يخشى على نفسه الملل والنفرة عن الطاعة ـ كما هو مقتضى الطبع البشري ـ مرخصاً فيه من الله، وهو يحب الأخذ برخصته، فيكون تركها جالباً لمحبته عزَّ وجلَّ بالعرض، وإن لم يكن بحسب الذات كذلك.

فيكون العبد متعرضاً لمحبته عزَّ وجلَّ في فعله وتركه، إن هذا لهو الفوز العظيم، لمثل هذا فليعمل العاملون.

ويشهد لهذا المعنى إختلاف المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام وعن مولانا الحسن بن علي.

فعن الأمير عليه السلام أنه إذا عرض له أمران كلاهما رضا لله إختار أشدهما على نفسه، وعن الحسن عليه السلام أنه يختار أسهلهما على نفسه.

فالثاني من باب أنّ الله يحب أن يؤخذ برخصته كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، ومن باب الاقتصاد في العبادة، ومن قولهم: إنّ هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تُكرّهوا إلى عباد الله طاعة الله[1]. ومن باب مخادعة النفس بالجلب الى طاعة الله.

والأول وجهه ظاهر فإنه من باب المخالفة للنفس، الذي هو مفتاح البركات، وكلاهما في مقام الارشاد للعباد والهداية للخلق، وإلا فمقاماتهم في أنفسهم بما تقصر عنه العقول والأحلام، وهم أعرف بها.

---

(١) الكافي ٢: ١/٧٠.

وكذلك لا بد لك من التّروي في العمل والتدبر فيه حتى يتأتى إيقـاعه على الـوجه المـطلوب، وحتى يتحرر أنـه منبعث عن داعي الاخلاص، وذلك في الغالب يقتضي مدة ومهلة، مع أن كل شيء أخّرته فللشيطان فيه نظرة، وللتأخير فيه آفات، وفيه يُخشى الفوات.

فإذا تعارض عليك هذان الأمران، حيث أنك بـالتأخـر تخشى الفوات، وبالتقـديم والاستعجال تخشى فسـاد العمل بعـدم التروي والتأمل، ومخادعة الشيطان (لعنه الله) بإبرازه لك في صورة الـطاعة وهو في الحقيقة لداعي النفس والشيطان فيكون من نوع المعصية.

فطريق الخلاص من هذا التعارض أن تعلم أن التـأخر الـذي للشيطان فيه نظرة، وفي الغالب أن يكون مفوتاً للعمل، إنما هو التأخر عجزاً وكسلاً، وحرصاً على المال، ومحبة لأن يبقى في قبضتك ولا تنفقه فيخرج من يدك، هذا هو التسويف المهلك للعـالم، وهذا لا شك في قبحه، ووجوب مجاهدة النفس ومخادعتها لأن تسلم منه.

وأما التأخر لأجل التروي والاتقان فهو مطلوب ومحبوب ومأمور به من قبل رب العزة فلا يستتبع ندامة، ولا يكون مفوتاً للخير، لأنك محسن بامتثالك الأمور و﴿**ما على المحسنين من سبيل**﴾[1].

مع ذلك إذا أردت أن تتقن الأمر وتضبطه فاجعل تأخيرك مقروناً بالتوكـل على الله في أن يمكّنك منـه في الوقت الـذي تؤخّره إليـه ويعينك، واجعل تقديمك للشيء عند مجاذبة داعي الكسل والحرص الى التأخير مقـروناً بـالتوكـل على الله في أن يعينك على إخـلاص المشيئة فيه، وإيقاعه على وجهٍ محبوبٍ إليه، وجالبٍ لرضاه.

---

(١) سورة التوبة، آية: ٩١.

فإذا قرنت الأمر بالتوكل في كل من التأخير والتقديم، واجتهدت في تشخيص الداعي إلى التقديم والتأخير، فإن كان هو الحرص على الشيء بالرغبة النفسانية، والكسل، والحرص على ما في يديك لم تنبعث لهذا الداعي الفاسد.

وإن كان المحرك على كل من التقديم والتأخير داع صحيح انبعث له، فأنت محسن في تقديمك، وتأخيرك، وما عليك من سبيل، وأنت جالب لمحبة الله بكل من التقديم والتأخير كالذي قدمناه لك من أنك متعرض لمحبة الله في فعلك وتركك.

فإن كان العبد متعرضاً لمحبة الله بفعله وتركه، وتقديمه وتأخيره تم له السير إلى الله بسلوك سبيل طاعته بلا انقطاع، وحاشاه حاشاه أن يقطع من انقطع إليه وقرع بابه.

ثم لا تتوهم انحصار طريق القرب إلى الله بالعبادة المعلومة من الصلاة، والصيام، وتلاوة القرآن، والتعلم، والتعليم، واستعمال الأدعية، والزيارات، ونحو ذلك، بحيث يكون كل ما خرج عن ذلك لغواً، وتضييعاً للعمر فيما لا فائدة به كما ظنّه كثير من إخواننا الصلحاء، فإن ذلك قصور واشتباه للأمر بك.

إعلم أن مراد الشارع الأصلي من المكلفين تقوية البصيرة لكي يطيعوه بالبصيرة التامة، والمعرفة الكافية، وكل ما له دخل في تقوية البصيرة وزيادة الفطانة فهو داخل في مراد الشارع ومطلوب له، بل يكون طلبه له وحثه عليه آكد من غيره.

من اقتصر على العبادات التي ذكرناها وقصر نظره عنها يغلب عليه الجمود، وتقل فطانته بالموضوعات الشرعية فى القبلة والوقت

ونحوهما، ويتمكن من خديعته من يريد الخديعة له في دينه من شياطين الإنس والجن، وهذا خلاف مراد الشارع ونقيض غرضه.

بخلاف من يمارس الأمور ببيع وشراء ويتعلم الآداب، ومحاورة الخطاب، والنكت المستحسنة للسؤال والجواب، ويضيف ذلك إلى عباداته وأوراده، وعلمه وتعليمه، هو الرجل كل الرجل، نعم الرجل، والوجدان والاختبار لذلك أعظم شاهد.

وكلّما سرّحت نظرك في تعلّم شيء من الصناعات المحسوسة فتح الله لك أبواباً من العلم في المعقولات، والأصل في ذلك أن الله سبحانه قد ربط المحسوسات بالمعقولات، والأمور الأخروية بالأمور الدنيوية.

فمن أراد الأمور الأخروية بغير الأمور الدنيوية لم يتأت له ذلك، فقد جعل الله الأمور الأخروية لا تتم إلا بالدنيوية، وجعل الدنيا المقصود بها التوصل إلى الآخرة محسوبة من الآخرة، ولا تدخل في مذام الدنيا، ولذا ورد في الحديث أنّه: ملعون من ترك آخرته لدنياه، ملعون ملعون من ترك دنياه لآخرته، انتهى معنى الحديث.

فإن الدنيا التي يلعن من تركها للآخرة هي التي يتوصل بها إلى الآخرة، ولا تتم أمور الآخرة إلا بها، وهي في الحقيقة من الآخرة، وتركها ترك الآخرة، والدنيا المذمومة هي التي لا يقصد بها التوصل، وهي الفضول التي لا يتوقف عليها شيء.

فالنوع الأول من الدنيا كما لا بد منه في التوصل، وهي واجبة، لذلك أيضاً بإذن الله جُعل الخوض فيها مفيداً للفطانة وتقوية الفهم

والبصيرة، وهو معنى ما في روايات التجارة: أنّها نصف العقل[1].

وروي أيضاً: أنّ العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في التجارة وجزء واحد في جميع الطاعات[2].

ويؤيد ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله اتجر قبل البعثة إلى الشام، وغيره من الأنبياء والمرسلين.

فهذا الإنسان فاقد لكل الكمالات وهو محتاج إليها كلها، ولكل منها نفع في شيء خاص، وكلها من حيث الجملة تفيد تقوية العقل، وزيادة الفطنة والبصيرة.

فاقتضت الحكمة الالهية أن تكون هذه الكمالات مفرّقة في العالم، وأن يكون كثير منها متداولاً على ألسنة الناس شائعاً بينهم حتى يصل إلى كلّ أحد نصيبه، ولهذا أمر بأن تقبل كلمة الحكمة ممن جاء بها كائناً من كان، حتى قالوا عليهم السلام: خذ الحكمة ولو من أهل النفاق[3].

وقالوا عليهم السلام: خذوا العلم من أفواه الرجال[4].

فلما أراد الشارع الحكيم لهذا العبد أن يستوفي نصيبه من الحكم والمعارف بذلها له في العالم حتى يتيسر وصولها إليه، وأمره بقبولها ممن جاء بها، فإن أهل البيت عليهم السلام أمروا شيعتهم أن

---

(١) الوسائل ١٢ : ٤/٩ وفيه: تزيد العقل.
(٢) في (الوسائل ١٢ : ٤/٨) تسعة أعشار الرزق، بدل العبادة.
(٣) البحار ٢ : ٥٧/٩٩.
(٤) البحار ٢ : ٦٤/١٠٥

يعرفوا الرجال بالحق، ولا يعرفوا الحق بالرجال، فقال عليه السلام: انظر إلى ما قال ولا تنظر إلى من قال[١].

وقالوا: غريبتان: كلمة حكمة من سفيه فاقبلوها، وكلمة سفه من حكيم فاغفروها[٢].

فالكمال كل الكمال إنما هو اكتساب من أقوال وأفعال، أو معاملات، أو تجارب، حتى ورد عنهم عليهم السلام: أنّ العقل حفظ للتجارب، وخير ما جربت ما وعظك[٣]، وأن التجربة علم مستفاد[٤].

فما انقدح في نفوس جملة من الأخوان من الاقتصار على هذه العبادات المألوفة، وقصر النظر عليها جرّبناه، واختبرناه، وتأملنا في الأحوال الماضية من أهل الأعصار السابقة ممن نقل إلينا حاله فوجدناه مستلزماً للبلادة وقلة الفطانة، غير موصل صاحبه إلى الترقي، واكتساب المقامات الرفيعة، فأحببنا التنبيه على أنه من خدع الشيطان الرجيم (لعنه الله) التي يحبسه بها عن الانتقال إلى المقامات الرفيعة، والرتب السنيّة.

ومما يهتدى اليه باستسهال الشيء بالنسبة الى ما فوقه استحقار الدنيا وشؤونها وأطوارها بنسبتها إلى أمور الآخرة وأحوالها وأطوارها.

فالواجب على من يريد الإقبال على الله أن يخرج هموم الدنيا من قلبه، فلا يفرح بشيء منها أتاه، ولا يحزن على شيء منها فاته،

---

(١) البحار غرر الحكم ١: ٣٥٥.
(٢) البحار ٢: ٤٤/١٥.
(٣) البحار ٧٧: ٢٠٨.
(٤) غرر الحكم:

بأن يتدبرها في نفسها، وينظر في فنائها وزوالها، وسرعة تقلباتهـا، وعدم دوامها على حال، فالعاقل لا يليق به أن يتوجه الى هذا الشيء الذي لا يستقر على حال، بل هي في الحقيقة لا شيء.

وثانياً بأنّ هذه الدنيا إن فرضناها شيئاً ـ كما هو مقتضى تلبيس الشيطان (لعنه الله) الذي لبّس به على هذا الخلق بحيث أوهمهم بأنها في نفسها شيء حسن ـ لكن لا ريب وبالضرورة لا نسبة لها إلى ما هو أحسن من ملاذ الآخرة التي اجتباها الله لأوليائه، واختارها لأصفيائه.

فعلى فرض أن الدنيا فيها شيء من الحسن فهو مضمحل عند نسبته إلى حسن الآخرة.

فإذا أدمت النظر وأحسنت الفكر انجلى لك أن من يتوجه إلى شيء من أمـور الدنيـا من حيث أنها دنيـا ـ لا لأجل التـوصل إلى الآخرة ـ متوجه إلى العدم المحض والباطل الزائل.

فيا أيها الأخ اعلم أن طريقة أهل البيت عليهم السلام على أن تعرف بأنها ليست شيئاً في نفسها، فمهما رأيتها شيئاً وتريد أن تتركها لشيء آخر أحسن منها فأنت لم تهتد الى طريقة أهـل البيت عليهم السلام.

فأجمع فكرك وتضرّعك إلى ربّك في أن يعرّفك الدنيا على ما هي عليه عند أهل البيت، لتكون في الذين يقتفون آثارهم، ويتبعون منهاجهم، وإلا فنحن بواد والعذول بواد.

وإذا تبدّه عندك بعض النظر الصحيح والفكر الثابت المليح أن الدنيا ليست شيئاً يطلب، ولا مما يصح أن يتوجّه اليه القصد، فـلا

مناص لك عن انحصار قصدك وتوجهك فيما يرجع إلى الله، وفيما يطلب الله.

فإذا اتفق أنه يصدر منك بعد ذلك شيء لا لله سبحانه بل لمقتضى الطبع، أو لميل النفس أو لمخادعة الشيطان (لعنه الله) فهذا مما لم يكن داخلاً تحت قصدك، ولا مندرجاً تحت إرادتك وعزمك، بل أشبه شيء بالكلام الذي يقع منك غلطاً، أو الكلام الذي أوقعك فيه الغير بحيلة، أو خديعة، أو أنه وقع منك نسياناً لما أنت بانٍ عليه، أو سهواً عما أنت عازم عليه، فيصح لك على هذا أن تقول في الزيارة الجامعة: «مطيعاً لكم».

حيث انك في حال القصد والتخلية لا تطيع إلا لهم، ولا ترى غيرهم من أعدائهم أهلاً للطاعة إلا أن تُخدع، أو تفرّ أو تسهو، أو تغلط فتقع في غير مرادك، وخلاف قصدك، فيتأتى منك حينئذ التوبة الصادقة، والاستغفار الصادق، حيث أنك دائماً عازمٌ على عدم العود في الإثم، وعلى الاستمرار على الطاعة، ولا تكون ممن ورد فيه الحديث: بأن المقيم على الذنب وهو يستغفر منه كالمستهزىء بربه[1].

فتخرج بما ذكرناه عن عنوان المستهزئين، وكأنه الى هذا المعنى أشار سيد الشهداء عليه السلام في دعاء عرفة: إلهي إنك تعلم أني وإن لم تدم الطاعة مني فعلاً جزماً فقد دامت محبةً وعزماً[2].

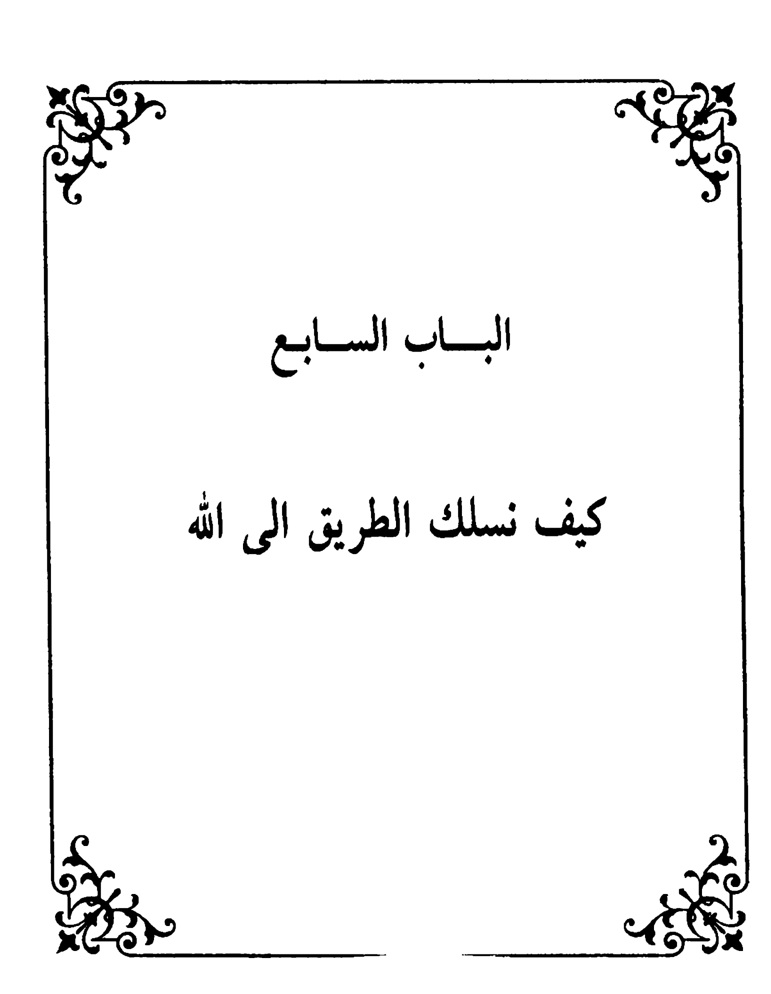
فكل ذلك يتوقف على خروج حب الدنيا من القلب، ولو

---

(١) البحار ٦٣: ٢٨١/٢٢.

(٢) اقبال الأعمال: ٣٤٨.

بالمعنى الذي ذكرناه بأن يكون بناء أمرك وتصميم عزمك على أن لا تفعل شيئاً من أمور الدنيا من حيث أنها دنيا، إذ هي بهذه الحيثية ليست مقصداً للعاقل، بحيث تعد نفسك إذا فعلت ذلك لذلك داخلاً في السفهاء، وخارجاً عن عداد العقلاء، فإذا أتقنت ذلك بحيث تبدأ في نظرك تم لك الغاية التي ذكرناها وغيرها مما في معناها، فاغتنم ذلك ولا تكن من الغافلين.



البـــاب الســابـع

كيف نسلك الطريق الى الله

إعلم أن السالك سبيل الله والمتوجه لما عند الله يجب عليه أمور حتى لا ينقطع عليه الطريق، فإن أدلاء هذا الطريق وهم أهل البيت عليهم السلام قد أرشدوا إلى أمور من عرفها سهل عليه، وإلا انقطع به الطريق، ورجع الى خلف رجوع القهقرى.

الأول: أن يعرف أن الخير كله عند الله فلا يلتمس الخير إلا عنده، ولا يطلب من سواه.

فإذا عاشرت الخلق وباشرتهم فليكن ذلك طلباً لما عند الله، وابتغاء لرضا الله، بأن يكون همك الإحسان إليهم، وإدخال النفع عليهم، فإن الخلق عيال الله،وأحب الخلق إلى الله من أدخل النفع على عيال الله[1]، كما في أخبار أهل البيت عليهم السلام.

فإذا أردت المرتبة العليا بأن تكون أحب الخلق إلى الله على ما اقتضاه الحديث الشريف فأتقن هذه المقدمة أولاً، وهي أن تعلم بأن

---

(١) الكافي ٢: ٦/١٣١.

انتفاعك منهم بهذا الطريق أعظم من نفعك لهم، حيث أنك بسببهم توصلت إلى أن تكون أحب الخلق إلى الله، فلا تطلب منهم نفعاً غير هذا، واقطع النظر عن كل ما سواه فما وراء عبادان قرية.

فـإذا كان أصـل معاشـرتك لأجـل أن تنفعهم، ويصـل منـك الاحسان إليهم فوطّن نفسك أولاً على تحمل الاسـاءة منهم، وعدم مكافأتهم بها، وهذا أول إحسان منك إليهم.

ثم إذا وطنت نفسك على أن لا تكافىء المسيء بإساءتـه فلا تقنع بذلك فإنك تريد الاقتداء بأهل بيت سجيتهم الاحسان الى من أساء إليهم، والعفو عمن ظلمهم، والوصل مع من قطعهم، والاعطاء لمن حرمهم.

فلا بد لك من توطين نفسك على أن تتمنّى أن يسيء اليك أحد ثم تحسن اليه، حتى تتوصل بسببه الى تحصيل فضيلة الإحسان الى من أساء اليك، فتُحصّل التأسي بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام حيث أن سجيتهم ذلك، وقد قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: إن أحب الخلق إلى الله المتأسي بنبيه[1].

فتحصل بإساءته إليك ومقابلتك له بالإحسان على هذا المقام العـالي أولاً، ثم أنك مـع فقرك، ولؤمـك، وحاجتـك، إذا كافـأت المسيء بالإحسان فالله سبحانـه وتعالى بكـرمه وغنـاه أولى على أن يكافئك على الأعمال السيئة بالإحسان، فتحصـل لك الحجـة على اكرامه بذلك ثانياً.

بل هو سبحانه إنما أمرك بالإحسان إلى من أساء اليك لينبّهك

---

(١) نهج البلاغة: الخطبة ١٦٠.

على أنك فعلت ذلك فأنا أولى بذلك منك وأنت أحوج إلى إجراء المعاملة هذه معك، فأمرك بأن تجري هذه المعاملة.

ونفع هذه المعاملة العائد لك أعظم من النفع الذي أمرتك بأن توصله إلى من أحسنت المعاملة معه، فلو أنك نظرت بعين البصيرة لرأيت إساءته إليك حيث أوصلك إلى هذه المقامات إحساناً يستحق الشكر عليه، فضلاً عن المجازاة له بالاساءة.

وهذا كله على تقدير تحقق الإساءة إليك من الغير، وإلا فعلى تقدير أنك ظالم أو تتظلم كما هو المشاهد في أحوال غالب الخلق، فالأمر أجلى وأوضح، فإنا ما رأينا أحداً من الناس إلا وهو يشتكي ويتظلم، ولم نر إلى الآن متنازعين ومتخاصمين من الأخيار ولا من الأشرار وأحدهما يقر للآخر أني ظالم لك ومتعد عليك.

بل لم نزل نرى الأخيار وأهل الصلاح والتقوى يتخاصمون وكلّ يدّعي المظلومية من الآخر، وأنّه صاحب الإحسان عليه، والتحمل منه، وهم ممن لا يتعمدون الكذب ولا يتجرؤون عليه، فاعلم أن ذلك من مكائد النفس الأمارة، وتلبيسها الباطل بصورة الحق حتى تشبّه الأمر على صاحبها.

ولهذا رد الشارع الحكيم شهادة العدل لنفسه، ولم يجز التعويل في ذلك على عدالته، فوجب على العاقل المنصف أن يتهم نفسه في حق نفسه، ولا يقبل شهادته لنفسه، كما لا يقبله الشارع.

فهذا غير الذي تعاشره وتباشره إن كان أصل معاشرتك أن تنفعه لا لأجل أن تنتفع منه، فقد أرحت قلبك أولاً بقطع الآمال من الناس، وقطع الطمع عنهم، وهذا هو الغنى الأكبر الذي هو غنى النفس.

ثم أن أول صدقة منك عليهم أن تكف الأذى عنهم، وأول ذلك أن ترفع أذاك عنهم، فلا تتعرض لهم بما يؤذيهم، ثم توطّن نفسك على تحمل الأذى منهم، ثم اجعل همك إيصال الإحسان إليهم.

فإذا توطنت نفسك على ذلك فإن وصل إليك مكافأة بإحسان فهذه نعمة غير مترقبة، فتكون أوقع في النفس وألذ.

وإن رأيت أنهم قد قطعوا النظر عنها وتعلقت نفوسهم بأن تقبلها منهم فاقبلها منهم، فإن قبولها الإحسان عليهم ولو لم تكن محتاجاً اليها، فإن ردّها يكدّر خواطرهم، وهو إساءة إليهم وقد وطّنت نفسك على ترك الإساءة إليهم، وأنت مأمور بذلك.

وإن كان إحسانهم الذي وقع مكأفاة مجرد تعارف، ويتوقعون منك أن تردها عليهم فاقبلها منهم ثم ردّها عليهم من باب الهدية الجديدة كما هو وفق إرادتهم.

وإن كان مرادهم أن تقبلها منهم وتكافيهم عنها بعوض آخر أزيد منها فاقبلها منهم وكافئهم بالأزيد، وهو الإحسان اليهم، ولا تظهر لهم أنك فهمت أنهم أتوا بها لأجل العوض، بل أجر الأمر على ظاهره، فهو إحسان منك إليهم.

والحاصل يا أخي، إن الله يأمر بالعدل والإحسان وكما تدين تدان.

واعلم أن عمدة الإحسان إلى الناس ليس ببذل المال، فإنا رأينا كثيراً من الناس يبذلون المال ولا يكون ذلك إحساناً، بل يستتبع إساءة، وتكدير خاطر، ويكون من قبيل صدقة يتبعها أذى بحسب الخارج، وإن كان أصل قصدهم الإحسان، لأنهم لا يعرفون وجهه،

وكل ذلك من إهمال قواعد أهل البيت عليهم السلام، وعدم الالتفات الى طريقتهم.

فإذا اردت أن تقضي حاجة لأخيك المؤمن على وفق طريقة أهل البيت عليهم السلام فاعلم أنهم قالوا: إن قضاء الحاجة تتم بأمور: تصغيرها لتكبر، وتعجيلها لتهنأ، وكتمانها لتظهر.

وما لم تجتمع هذه الأمور لا تكون الحاجة تامة، بل تكون ناقصة مكدرة، بل ربما كانت أذية على صاحب الحاجة.

وعادة الخلق أنهم أذا قضوا حاجة يُخلّون بهذه الأمور كلها، فلا يتم في أعمالهم قضاء حاجة على وجهها، وهذا هو العظيم حيث انهم يتجرعون مرارة إنفاق المال ولا يترتب عليه الثمرة المطلوبة الذي هو إدخال السرور في قلب المؤمن.

وتراهم إذا قضوا حاجة يوعدونه بها أولاً، ثم يماطلونه، فيبقى يتجرّع مرارة الانتظار الذي هو أشد من القتل، ثم يتجرع مرارة اليأس من الحاجة مراراً معددة، ثم بعد حين تقضى الحاجة وقد تحمل مرارة المطالبة، ومرارة الخجل، مع مرارة الانتظار، ومرارة اليأس، ومرارة الفشل من الناس الذين وعدهم، معتمداً على وعدهم الذي وعدوه فأخلفوه، فأي لذة تبقى بعد هذا، بل كان إثمها اكبر من نفعها.

وكذا عادتهم في الحاجة أنهم لا يصغّرونها ويقولون هذا أمر جزئي بالنظر إلى قدر المؤمن الذي في بعض الروايات أن حرمته أعظم من حرمة الكعبة[1]، بل يظهرون أنا قد فعلنا معك إحساناً

---

(١) البحار ٦٧: ٧١/٣٩.

عظيماً، بحيث يتوقعون أن يترك العبودية لله عزّ وجلّ ويصير عبداً لهم!

وكذلك لا يخفونها على الناس حتى تقرب من الاخلاص وتبعد عن الرياء وتكون من قبيل العمل الخالص الذي في الحديث: عليك إخفاؤه وعليّ إظهاره.

بل يظهرونها لجميع الخلق، ويذلونه في جميع العالم، فهذه عادة الخلق المنحوسة والعيان فيها يغني عن البيان.

فعلم مما ذكرناه أن الإحسان ليس عمدته بذل المال، بل عمدته ملاحظة الأمور التي ذكرناها.

والإحسان إلى كل شخص إجراء الأمر على وفق مراده، والتحذير من تكدير خاطره، فمن يكون مراده أن تقبل منه فإحسانك بقبول ذلك الشيء منه، وإن أردت أن تكون يدك العليا فكافئه عنه بأحسن منه، أو مثله، إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتأمل المراعي لِدقائق أهل البيت عليهم السلام، لوصاياهم وسجاياهم.

فإذا تمت لك المعاشرة مع الخلق لأن تنفعهم، وقطعت نظرك عن الانتفاع بهم بالمرة بحيث أن كل نفع تؤمله منهم تعدل به إلى من لا تخيب عنده،ولا يقربه البخل في حال، فلا تستغرق أوقاتك بالخلق، وتجعلهم شغلك وهمك، فإنك مأمور من أهل البيت عليهم السلام: أقلل معارفك، وأنكر من عرفت.

والحكمة في ذلك أن لا يشغلوك عن التوجه إلى خالقك، فإن في التفرغ للعبادة، وخلو البال عن كل شاغل يشغلك عن الله معنوية لا تنال بمعاشرة الخلق، وفي الحميّة معنى ليس في العنب.

ولهذا قال أحد الأئمة عليهم السلام لمن قال له: خلوت بالعقيق وتعجلت بالوحدة: يا هذا، لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت من نفسك[1].

فالمراد انك حيث تحتاج الى معاشرة الخلق لا بد أن يكون طورها على ما وصفناه لك.

وليس المراد أنك تجعل شغلك الاشتغال بمصالح (الخلق) فلا بد من توزيع الوقت وتقسيمه فتجعل لك وقتاً للتضرع إلى الله ووقتاً لمعاشرة الخلق، بأن يكون جالباً لرضاء الله، ومقصوداً به وجهه، وليكن حظك من الأول أوفى، وليكن هو همك وبغيتك فانه المطلوب منك بالأصالة، وحتى يتأتى لك إرجاع الثاني إلى الأول وإلا ملت به إلى حظ النفس، وصار وبالاً عليك، فلا تنال منهم دنياً ولا آخرة، ووقعت فيما فيه الناس من الظلم، والتظلم، وألم الشكوى من جميع المعاشرين، كما أنهم لا يزالون في الشكاية منك فلا تنال رضاهم أبداً.

لا خير ولا راحة إلا في الاقبال على الله، والتوجه إليه، وبذلك يسهل كل شيء من مهمات الدنيا والآخرة، وكل تعب وهم وشدة وغم فإنما يترتب على الغفلة عن الله، والأدبار عنه، وهذا ما يتعلق بالأمر الأول من الأمور التي تلزم من يريد أن يسلك سبيل الله.

الثاني: أن يراعي حقوق الخلق في الله فإن مراعاة حق الخلق في الله مراعاة لحق الله، كما أن إهمالها إهمال لحق الله.

---

(١) البحار ٧٨: ٢٥٤.

فإذا أردت ذلك فاعلم أن لهؤلاء حقوقاً كثيرة يلزمك أن تعرفها حتى لا تجهل حق الله فيهم، فإذا عرفتها استعنت بالله على أدائها، والقيام بها، وإذا عجزت عنها كان اعترافك بالعجز قائماً مقام القيام بها.

فأحدها أنهم يقولون (علي ولي الله) وكل من يقول هذه الكلمة الشريفة كيف يمكنك القيام بحقه؟ بل كيف يمكنك معرفة حقه؟ بل كيف تتصور حقه؟

هيهات.. هيهات، حق من يعترف بهذه الكلمة تابع لحق من هو منسوبة اليه وهو علي عليه السلام، وحقه تابع لحق رسول الله صلى الله عليه وآله، وحق رسول الله صلى الله عليه وآله تابع لحق الله تعالى، وكيف يمكن القيام بحق الله وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر: «إن حقوق الله جل ثناؤه أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعم الله اكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أمسوا تائبين، وأصبحوا تائبين»[1].

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض أصحابه وهو يشير إلى علي عليه السلام: «والِ ولي هذا ولو أنه قاتل أبيك وولدك، وعاد عدوّ هذا ولو أنه أبوك وولدك».

فإذا أوجب له إنتسابه لعلي عليه السلام وموالاته له أن تسامحه في قتله لأبيك وولدك، وتغفر له ذلك، فكيف بما دون ذلك؟!

بل لا يكتفىٰ منك بمجرد المسامحة والعفو، بل يجب له مع ذلك أن تحبه، وتكرمه، وتحترمه، كما هو مقتضى الموالاة، بل لو

---

(١) البحار ٧٧: ٧٦.

فديت له نفسك لكان قليلا في حق من هو منسوب إليه، ولقد أجاد الشاعر حيث يقول:

وما حب الديـار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا

فأنت إذا تسامحت مع محب أمير المؤمنين عليه السلام فـالله أولى بمسامحتك، وأن يغفر لك كل ذنب إكراماً لمحبتك إلى أميـر المؤمنين عليه السلام، فإن الله أشد حبـاً منك لأميـر المؤمنين عليه السلام.

وكلما كان مقصراً في طاعة أمير المؤمنين عليه السلام ولاحظت مجرد الانتساب، واحترمته لذلك فيكون احترامك لأمير المؤمنين عليه السلام أعظم.

إذ من هو بذاته مستحق للاحترام ربما يكون احترامك له من جهة قابليته بذاته للاحترام لا لجهة الانتساب المحض، فيكون دالاً على شدة الاحترام، إذ لـولا القوة والشـدة لما غلبت على المـوانع المعارضة.

فهذا أحد الحقوق وفيه الكفاية، وأنّى لك بالقيام به!

فكيف إذا انظم إلى ذلك أنه من ذرية علي عليه السلام؟

وكيف إذا انظمّ اليه كونه من زائريه، أو كونه من مجاوريه، أو من خدام حضرته، أو إسمه إسمه أو إسم أحد أولاده عليهم السلام، أو كونه يسمّى بما يدل على الانتساب إليهم، كعبد علي، أو عبـد الحسين؟

وأما حق الرحمية وحق المجاورة وحق المـرافقة وحق الـدعاء

وحق تعليم القرآن أو تعليم حرف من العلم، أو كمال من الكمالات، أو كونه أكبر منك سناً، أو كونه مجتهداً لك، أو إماماً لك في الجماعة، أو كونه محسناً الى بعض أرحامك، أو إلى بعض جيرانك، أو كونه سائلاً عنك، أو طالباً، أو محسناً بك الظن، أو نحو ذلك مما اشتملت عليه رسالة الحقوق لمولانا علي بن الحسين عليه السلام، وكلها حقوق عظيمة عند أهل البيت عليهم السلام، ومسؤول عنها يوم القيامة.

فأنّى لك بالخلاص منها، والعذر عنها، وقد ورد ما معناه، أنّ ثلاثة يشكون يوم القيامة إلى الله: مسجد مهجور، وقرآن مطروح في البيت عليه غبار لا يتلى فيه، وعالم في محله لا يسمع منه[1].

فما حال من أبرز للحساب واجتمع للشكوى عليه عند الحاكم العادل ثلاثة: بيت الله، وكتاب الله، وولي الله!

فأيهم لا يسمع شكايته؟

وأي هؤلاء ينكر حقه وحرمته عند الله؟

فهذه حقوق عظيمة كيف يمكنك الاعتذار عنها في ذلك الموقف العظيم؟ فقد ورد: أنّ العاطس يعطس فلا يسمت فيطالب بحقه فيقضىٰ له يوم القيامة.

فيا أيها الأخ المسترشد، أنت إذا نظرت بعين العقل ـ التي أودعها الله فيك لتبصر بها ـ لا يكون همّك إلا الاعتراف بالتقصير والسعي في خلاص رقبتك من الحقوق التي لزمتك، وترى أنهم وإن

---

(١) عدة الداعي: ٢٧٢.

بالغوا في مسائلتك فأنت بعدُ مُطالب بالحقوق التي لهم عليك، فيكون همك استعفائهم، والاعتذار منهم، والمبالغة فيما يمكنك من الاحسان إلبهم، رجاءً ليعفو الله، ويرضيهم عن بعض الحقوق.

فأنت إن نظرت إلى الخلق بهذه العين التي أودعها الله فيـك سهل عليك سلوك سبل الله، وهذا هو الأمر الثاني.

الثالث: أن يستوحش من الخلق أُنساً بالله، فإن العاقل يلزمه أن يكون مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه، عارفاً بأهل زمانه، مستوحشاً من أوثق إخوانه.

فمن هو هكذا دعا له علي عليه السلام بقوله: شدّ الله من هذا أركانه، وأعطاه يوم القيامة أمانه[١].

وفي الكافي عن جابر قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال: يا جابر والله إني لمحزون، وإني لمشغول القلب.

قلت: جعلت فداك، وما شغلك، وما حزن قلبك؟

فقال: يا جابر، إنه من دخل قلبه خالص دين الله شغل قلبه عمّا سواه[٢].

وفيما كتبه أمير المؤمنين عليه السلام إلى بعض أصحابه: فإن من اتقى الله عزَّ وقوي، وشبع ورَوي، ورفع عقله عن أهل الدنيا، فبدنه مع أهل الدنيا وقلبه وعقله معاين الآخرة[٣]. انتهى.

---

(١) الكافي ١: ٤٩/٥ وفيه عن الصادق عليه السلام.
(٢) الكافي ٢: ١٠٧/١٦.
(٣) الكافي ٢: ١٣٦/٢٣.

فالمؤمن إذا أنس بألطاف الله، وذاق طعم حلاوة ذكر الله يلزمه الوحشة من مفارقة هذه الحالة، فلا يرضى بمفارقتها.

فإذا منّ الله على عبده المؤمن بالتأييد ألزم قلبه هذه الحالة وأشغله بها، ومكّنه مع ذلك من الالتفات معها إلى ما دونها ثانياً وبالعرض، وإن كان أصل شغله بها وأصل التفاته إليها، فلا يزال مستوحشاً من هذه الضميمة، ويريد التفرّغ لما هو المطلوب له بالأصالة، والمقصود له أولاً وبالذات، إلا أن هذه الوحشة في قلبه لا تظهر على جوارحه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المؤمن: حزنه في قلبه، وبشره في وجهه[1].

وربما يخبر بها إن اقتضى المقام إظهارها كما مر في حديث الباقر عليه السلام مع جابر.

فهذا معنى كون المؤمن مستوحشاً من أوثق إخوانه.

فما لم تتم لك هذه الحالة، وهي كون الغالب عليك الاشتغال بالله، والوحشة عمن سواه، ولو كان من أوثق إخوانك، فلا تقدر على جعل معاشرتك للخلق ذريعة إلى القرب إلى الله لكون الغالب عليك الميل الطبيعي، وحظ النفس من الأنس بالجنس البشري، فتصير عبداً للنفس، ترضى لها وتغضب لها، وتخرج عن شرف العبودية لله، وما خلقت لذلك، قال الله عز وجل: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾[2].

---

(١) البحار ٦٧: ٣٧/٣٠٥.

(٢) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

البــاب الثامــن

لا يكمل إيمان المؤمن حتى تكون فيه ثلاث خصال خصلة من ربه وخصلة من نبيه وخصلة من امامه

إعلم أنه يراد منك أن تكون مقتدياً بسنّة من ربك عز وجل، ثم بسنّة من نبيك صلى الله عليه وآله، ثم بسنّة من أمامك.

فعن الكافي عن الرضا عليه السلام أنه: لا يكون المؤمن مؤمناً حتى تكون فيه ثلاث خصال: سنّة من ربّه، وسنّة من نبيه صلى الله عليه وآله، وسنّة من وليّه.

فأما السنّة من ربّه فكتمان سرّه، قال الله عزَّ جلَّ: ﴿**عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول**﴾[1].

وأما السنّة من نبيه صلى الله عليه وآله فمداراة الناس فإن الله عزَّ وجلَّ أمر نبيّه صلى الله عليه وآله بمدارة الناس فقال: ﴿**خـذ العفو وأمر بالعرف**﴾[2].

وأما السّنة من وليه فالصبر في البأساء والضراء[3]، انتهى.

---

(١) سورة الجن، آية: ٢٦.

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٩٩.

(٣) الكافي ٢: ٣٩/١٨٩.

فمن يكون مراداً منه الاقتداء بصفة ربه التي يمتدح بها لا شك أنه معدّ لمقام عظيم وخطب جسيم، وذلك أن الله يريد أن يمكنك داره التي اختارها واجتباها لأوليائه، وأصفيائه، وأحبائه وهي الجنة، فلا بد أن يرشدك إلى الصفات التي تشبه بسكان تلك الدار حتى تحصل المناسبة بينك وبين الدار وبين سكانها.

أما الدار فهي طيبة طاهرة على أكمل ما يكون من الصفاء والنورانية، وأما أهلها فهم الأنبياء، والمرسلون، والشهداء، والصديقون، فتأبى حكمة الحكيم أن يرضى بكونك بتلك الدار غريباً أجنبياً عنها، وعن أهلها، بحيث يكون وضعك في ذلك المكان وضع الشيء في غير محله اللائق به.

وهو سبحانه برأفته ورحمته لك لا يرضى لك إلا ذلك المكان الطيب الطاهر، فاقتضى ذلك شدة العناية الالهية بإرشادك إلى أعلى الصفات، وأكملها، وأبهاها، وأسناها.

فلم يرض منك إلا بأن تكون مقتدياً في الصفات التي لشرفها، ورفعتها، وجلالتها قد نسبها إليه عزَّ وجلَّ، وأثنى بها على نفسه.

فمن يكون متصفاً بالصفات المنسوبة إليه يليق به أن يسكن في الدار المنسوبة إليه، ولما كان جيرانه في تلك الدار أولياءِ الله، ألزمه بأن يتصف بصفاتهم.

فعندها يخاطب الباري سبحانه نفسه التي طابت وطهرت بالاتصاف بتلك الصفات الطيبة الطاهرة بقوله عزَّ وجلَّ: **﴿يا أيتها النفس المطمئنة إرجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي**

وادخلي جنتي﴾[1].

وتلك الصفات كثيرة إلا أن الامام عليه السلام اختار منها ثلاثة للاهتمام بشأن هذه الثلاثة حتى وصف الإيمان معلّقاً عليها.

فالأولى: كونه كاتماً لسره، وذلك أن أغلب الخلق غالب فيهم النقص وعدم الكمال، ولكن صفات الكمال معلومة الحسن والجمال، والشرفية، بحيث أنهم يتمنونها لأنفسهم، لكن لمخالفتها لهوى النفس الأمارة، وضعف همتهم لمجاهدتها يتقاعدون عنها.

فإذا رأوا من له همّة الاتصاف بها يخافون أن يتصف بها فيفوقهم في ذلك، والنفس لا ترضى بالانحطاط عن الاقران، بل تريد التفوق عليهم طبعاً، فما دام يمكنهم يسعون كل السعي في منعه من ذلك بالأفعال، والأقوال، وبكل حيلة.

والشخص الواحد لا قابلية له على مقاومة من لا يحصى عددهم، فلم يجعل الشارع للمؤمن طريق خلاص من ذلك إلا بكتم سرّه، وهو عدم إظهار ما هو بانٍ عليه، فحينئذ يُكفى من شرّ الخلق، ولا ينقطع عليه الطريق.

فلما علم أهل البيت عليهم السلام الأطباء الماهرون والحكماء المشفقون، أنّ نفس هذا المؤمن الأمارة بالسوء أيضاً هي من جملة أعدائه، وهي من جنس هؤلاء القطاع للطريق، رغّبوا المؤمن هذا الترغيب العظيم في كتم السر، وبينوا له من صفات الرب التي مدح بها نفسه، وأن وصف الإيمان موقوف على ذلك.

---

(١) سورة الفجر، آية: ٢٧.

والمقصود رفع منازعة النفس، وميلها إلىٰ الاظهار، فيتوسل إلى ذلك تارة بأن فيه انتفاعاً لمن تظهره له، وتارة بقصد إدخال السرور عليه، وتارة بقصد الاستعانة بنظره لعل له نظراً في ذلك، أو بدعائه، أو لعله ينقله إلى من ينتفع به، إلى غير ذلك من الرجحان للاظهار.

ودفع هذه التسويلات بأن ذلك لو كان راجحاً على الاطلاق لما اختار الله إخفاء سرّه عنهم، وخصّه بخزنة سرّه، إذ الحكيم لا يترك الأرجح ولا يفعل إلا الأكمل.

فعلم من ذلك أن في الاظهار إفساداً لهم ومنافاة للحكمة، فأنت أيضاً كن مقتدياً بربك في مراعاة الحكمة، واجتناب ما فيه الفساد، فإن مقصدها فاسد وإنما أبدته في صورة الصلاح وقد قال مولانا علي بن الحسين عليه السلام للزهري: وإياك أن تتكلم بما يسبق إلى القلوب إنكاره، وإن كان عندك اعتذاره، فليس كل من أسمعته نكراً أمكنك أن توسعه عذراً[1].

وفي المنسوب اليهم (عليهم السلام) شعراً:

إني لأكتم من علمي جواهره | كي لا يرى العلم ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن | إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا
يا رُبَّ جوهر علم لو أبوح به | لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي | يرون أقبح ما يأتونه حسنا

وهو مشهور، والأخبار الواردة في مدح كتم السر وذم الاذاعة في غاية الكثرة.

والمتحصل منها أن الإنسان بعد أن يكون الغالب عليه حب

---

(١) البحار ٧٤: ٢/١٥٦.

الكتم وكراهة الافشاء ينظر بعين العقل، حين وجد مقاماً للاظهار أظهر بمقدار الضرورة متحرّياً في ذلك امتثال أمرهم (عليهم السلام) بقولهم: لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم[1].

واعلم أن صفة كتم السر تشتمل على أمرين:

أحدهما: كون المؤمن ذا سر.

والثانية: أن تكون له ملكة الإخفاء والكتم بحيث لا تغلبه نفسه على الإفشاء والإذاعة.

وهذا الكلام كله في الثاني، وأما الأول فيكفي فيه ما قاله الصادق (عليه السلام) يوماً للمفضل بن صالح: يا مفضل، إن لله عباداً عاملوه بخالص من سرّه، فعاملهم بخالص من برّه، فهم الذين تمرّ صحائفهم يوم القيامة فرغاً، فإذا وقفوا بين يديه ملأها من سر ما أسروا إليه.

فقال المفضل: يا مولاي، ولم ذلك؟

فقال: أجلهم أن تطلع الحفظة على ما بينه وبينهم[2].

قال شيخنا أبو العباس أحمد بن فهد في (عدة الداعي) بعد ذكره لهذا الحديث الشريف: لا تغفل عن هذه المقامات الشريفة التي هي أنفس من الجنة[3]. وأنا أقول بهذا المعنى بقول القائل وقد أجاد إذا أراد هذا المراد:

---

(١) البحار ٢: ٧٨/٦٩.

(٢) عدة الداعي: ١٩٤ والبحار ٧٠: ٢٥٢/٧.

(٣) الكافي ٢: ٩٦/٤.

قلوب العارفين لها عيـون ترى ما لا يراه الناظـرونا
وألسنـة بـأســرارٍ تنـاجي تغيب عن الكرام الكاتبينا
وأفئـدة تطيـر بـلا جنـاح إلى ملكوت رب العالمينا

فهذا ما يتعلق بالسُنّة الأولى.

والثانية: هي مداراة الناس.

وهي السنّة عن النبي صلى الله عليه وآله، وقد قدمنا لك عن علي عليه السلام أنّ أحب الخلق الى الله من تأسّى بنبيه.

كما وحكمتها كحكمة كتمان السر، بل كتمان السر على مـا فسرناه نوع من أنواع مداراة الناس.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض[٣]. وعنه عن جده أيضاً قال: مداراة الناس نصف الايمان، والرفق بهم نصف العيش .

ثم قال الصادق عليه السلام: خالطوا الأبـرار سراً، وخـالطوا الفجار جهاراً، ولا تميلوا عليهم فيظلموكم، فإنه سيأتي عليكم زمان لا ينجو فيه من ذوي الدين إلا من ظنوا أنه أبله، وصبّر نفسه على أن يقال أنه أبله لا عقل له[١].

وعنه أيضاً عن جده صلى الله عليه وآله: ثلاثة من لم تكن فيه لم يتم لـه عمل: ورع يحجـزه عن معاصي الله، وخلق يـداري به الناس، وحلم يردّ به جهل الجاهل[٢].

---

(١) الكافي ٢: ٥/٩٦.
(٢) الكافي ٢: ١/٩٥.

وفي الحديث عن الصادق: من كف يده عن الناس فإنما يكف عنهم يداً واحدة ويكفون عنه أيدٍ كثيرة[1].

فيا أخي، ما يصدر من بعض من يدعي الصلاح والتقوى من أني لا أبالي بالناس، ولست محتاجاً، ومن يكون الناس؟ إلى غير ذلك من الكلمات التي تصدر منهم في مقام عدم المداراة كله من اتباع هوى النفس والجهل بطريقة أهل البيت عليهم السلام.

وكثير من الجهّال يشتبه عليه مقام المداراة للناس في مقام المداهنة، فيتخيل أن المداراة للناس المأمور بها المداهنة.

والفرق واضح فإن المداهنة المذمومة هي الموافقة على تحسين القبيح، أو ترك إنكاره رغبة وطمعاً فيما عندهم ليتوسل إلى منافعهم الدنيوية أو يجلب قلوبهم إليه من دون ملاحظة دفع مفسدة.

ومما يدل على حسن الرفق والمداراة وأنه يجر الى كل خير الرواية المشهورة للشامي الذي تكلم بما لا يليق مع علي بن الحسين عليه السلام لما حملوه إلى يزيد لعنه الله في الشام، فقال الشامي: الحمد لله الذي قتلكم وأكذب أحدوثتكم، وأراح الناس منكم.

فلما فرغ من كلامه قال له الإمام عليه السلام: يا شيخ، أتقرأ القرآن؟

قال: نعم.

قال: هل قرأت قوله **﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى﴾**[2]؟

---

(١) الكافي ٢: ٦/٩٦.

(٢) سورة الشورى، آية: ٢٣.

قال: نعم.

ثم قال: هل قرأت قوله: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً**﴾[1]؟

قال: نعم.

ثم قال: يا شيخ، هل قرأت قوله تعالى: ﴿**وآت ذا القربى حقه**﴾[2]؟

فقال: نعم.

قال الإمام عليه السلام: نحن القربى، ونحن أهل بيت نبيك.

قال: فرفع الشيخ كفه إلى السماء وبكى وتبرأ من قاتل الحسين وبكى وتاب[3].

فانظر كيف جرّه الرفق إلى الخير!

والمداراة ترك الانكار دفعاً للمفسدة أو لأجل تخفيفها، أو تحرزاً عن تهييجها، وأين هذا من ذلك.

والمداراة قد تكون لدفع الشر ممن تداريه، وقد تكون لاستجلابه الى الخير، وكلها في مقام لا محل للانكار، وأما للخوف، أو لعدم التأثير، فحينئذ الرفق، والبشاشة وتحمّل الأذى، والدفع بالتي هي أحسن هي المداراة، قال الله فيها: ﴿**إدفع بالتي هي أحسن فإذا**

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٣.
(٢) سورة الإسراء، آية: ٢٦.
(٣) البحار ٤٥: ١٢٩.

الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿فقولا له قولاً ليناً لعلّه يتذكّر أو يخشى﴾[2].

ومنها في الكافي عن الصادق عليه السلام قال أنّ النبي صلى الله عليه وآله بينا هو ذات يوم عند عائشة إذ استأذن عليه رجل فقال النبي صلى الله عليه وآله: بئس أخو العشيرة.

فقامت عائشة فدخلت البيت وأذن رسول الله للرجل، فلما دخل أقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله بوجهه الشريف وبشره، وأقبل يحدّثه حتى إذا فرغ وخرج من عنده قالت عائشة: يا رسول الله، بينا أنت تذكر هذا الرجل فيما ذكرته به إذ أقبلت عليه بوجهك وبشرك!

فقال النبي صلى الله عليه وآله عند ذلك: إن من شرّ عباد الله من تُكره مجالسته لفُحشه[3]، انتهى.

فهذا كله من المداراة التي هي نوع من التقية، وقد ورد في مدح التقية ما لا يحصى حتى فسر قوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[4] بأن المعنى: اعدلكم في التقية . وحتى قالوا أن تسعة أعشار الدين في التقية[5].

---

(١) سورة فصلت، آيات ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) سورة طه، آية: ٤٤.

(٣) الكافي ٢: ١/٢٤٦.

(٤) سورة الحجرات، آية: ١٣.

(٥) الكافي ٢: ٢/١٧٢.

ويكفيك ما في الكافي عن حماد بن واقد الفحام قال: استقبلت أبا عبد الله عليه السلام في طريق فأعرضت عنه بـوجهي ومضيت، فدخلت عليه بعد ذلك فقلت: جعلت فـداك، إنّي لألقاك فـاصرف وجهي كراهة أن أشقّ عليك.

فقال لي: رحمك الله، ولكن رجلاً لقيني أمس في موضع كذا وكذا فقال: عليك السلام يا أبا عبد الله، ما أحسن ولا أجمل[1]، انتهى.

فانظر لمن لاحظ كيف استحق دعاء الإمام له بالـرحمة بتـرك السلام عليه، وانظر إلى من لا يلاحظ المقام، وترك مجاراة الخلق كيف شكى منه الإمام وقال أنه ما أحسن ولا أجمل.

فمن هذا الحديث وأمثاله تعرف إن إكرام المؤمن بترك إكرامه حيث يكون إكرامه باعثاً إلى الحسد له وإثارة الفتن.

وقد يكون إكرامه بالقدح فيه كما صدر من بعض الأئمة في حق بعض الخواص وهو من باب خرق السفينة لتسلم.

الثالثة: الصبر في البأساء والضراء.

ولا ريب أن الدنيا سجن المؤمن، فأي سجن جاء منـه خير، ولقد قال الصادق لرجل اشتكى عنده الحاجة فقال له: إصبر سيجعل الله لك فرجاً.

ثم سكت ساعة، ثم التفت إليه فقال: أخبرني عن سجن الكوفة كيف هو؟

---

(١) الكافي ٢: ٩/١٧٣.

فقال: ضيق منتن، وأهله بأسوء حال.

قال: فإنما أنت في السجن فتريد أن تكون فيه في سعة، أما علمت أن الدنيا سجن المؤمن[1]، انتهى.

فالمؤمن إما أن يكون من أهل الشوق الى الآخرة فيكون أصل بقائه في الدنيا سجناً له، فضلاً عما يعرض له من البلاء.

وإما أن يكون ممن يُخشى عليه الميل إلى هذه الدنيا، والرغبة لما فيها فتأتي رأفة الحكيم فتزعجه منها بأنواع الابتلاء حتى يتنفّر منها ولا يركن اليها، فإنّها دار الظالمين.

وإما أن يكون ضعيف العمل، قليل الطاعات، فتأتي رأفة الحكيم الرحيم أن لا يحرمه ثواب الابتلاء بالمصائب، وقد قال الصادق عليه السلام: لو يعلم المؤمن ما له من الأجر في المصائب لتمنّى أنه قرض بالمقاريض[2].

وقال الصادق عليه السلام: من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد[3].

وقال الصادق عليه السلام أنّه ليكون للعبد منزلة عند الله عزَّ وجلَّ فما ينالها إلا بإحدى خصلتين: إما بذهاب ماله، أو ببلية في جسده[4]، انتهى.

---

(١) الكافي ٢: ١٩٥/٦.
(٢) الكافي ٢: ١٩٨/١٥.
(٣) الكافي ٢: ٧٥/١٧.
(٤) الكافي ٢: ١٩٩/٢٣.

فالابتلاء إما أن يكون للمؤمن مثوبة، ورفع درجة، أو عقوبة، وكفارة، وكلاهما حسن محبوب عند العاقل.

أما الثواب فواضح وأما العقاب فلما اشتملت عليه أخبار أهل البيت عليهم السلام من أن الله أكرم من أن يجمع على عبده المؤمن عقوبتين، فكل شيء عاقبه عليه في الدنيا فلا يعاقبه عليه في الآخرة.

فإذا كان لا بد للمؤمن من الابتلاء فلا بدّ له من الصبر، وقد خلق الله الصبر قبل أن يخلق البلاء، ولولا ذلك لتفطّر قلب المؤمن كما تتفطّر البيضة على الصفا.

وفي الكافي عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبرعن المعصية.

فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها كتب الله له ثلثمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض.

ومن صبر على الطاعة كتب الله له سبحانه ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش.

ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش[1].

وفي الكافي أيضاً عن الصادق عليه السلام: إنا صبّر وشيعتنا أصبر منّا.

قلت: جعلت فداك، كيف صار شيعتكم أصبر منكم؟

---

(١) الكافي ٢ : ٧٥/١٥.

قال له: لأنـا نصبر على مـا نعلم، وهم يصبرون على مـا لا يعلمون[1]، انتهى.

أنظر إلى رأفتهم كيف شكر لشيعتهم ما يقع منهم من الصبـر القليل على المصائب الجزئية بالنسبة إلى مصائبهم.

يريدون أن يلحقوا بهم شيعتهم كي لا ينقطعوا عنهم فيهلكوا ويضمحلوا، فإنهم علموا أن لا نجاة لشيعتهم إلا بأن يحسبوهم منهم، ويجعلوا أنفسهم مع شيعتهم صفة واحدة فحينئذ لا يمكن ردّ الجميع، فلا بد من قبول الجميع.

أما إذا كان لكل واحد حكمه هلكت شيعتهم لا محالة، فصار أقصى همّتهم، ونهـاية مـرادهم من شيعتهم أن يتشبّهوا بهم تشبهـاً صورياً كما قال أمير المؤمنين من أنّه من تشبّه بقوم أوشك أن يكون منهم[2].

ثم يتمّون ذلك بالشفاعة والدعاء، ففي دعاء الصاحب ـ عجل الله فرجه وجعلني فداه ـ الذي سمعـه السيد ابن طـاووس يدعـو به لشيعتهم في السـرداب المقدس مـا معنـاه، وقـد غـاب عني بعض ألفاظه: اللهم إن شيعتنا منا، خلقوا من فاضل طينتنا، وعجنوا بنور[3] ولايتنا، فولّنا أمورهم، واغفـر لهم ما فعلوه من ذنـوبهم اتكالاً على محبتنا، وإن خفّت موازينهم فثقّلها بفاضل حسناتنا[4].

---

(١) الكافي ٢: ٢٥/٧٦.

(٢) نهج البلاغة: الحكمة (٢٠٧).

(٣) في المصدر: بماء.

(٤) البحار ٥٣: ٣٠٣ باختلاف.

أنظر اليه ـ عجل الله فرجه وجعلني فداه ـ كيف يبالغ بالاهتمام بخلط شيعتهم بهم، حتى لا يختزلوا دونهم فتارة أنهم في أصل الخلقة منهم، وتارة بأن الذنوب الصادرة منهم منشؤها الاتكال على محبتهم، وتارة التضرّع إلى ربه في تكميل نقصهم بفاضل حسنات ساداتهم ومواليهم.

فيا أخي هم يعلمون ما لا نعلم، وهم الذين قالوا: لا تنظروا إلى المعصية، ولكن أنظروا إلى من عصيتم(١).

فلعلمهم بخطر معاصينا، وشدة خوفهم علينا من الهلكة أرشدونا إلى أن طريق النجاة المرجوة فيه السلامة إنما هو: بذل الجد والجهد في التشبه بهم مهما أمكن، بحيث يجعل الإنسان همّه في أن لا يفارقهم طرفة عين لما ذكره الرضا عليه السلام بأن يكون اكتفاؤه من المؤمن سنّة من وليّه.

مراده بها أنّ هذه السنة تستجمع السنن كلها، بحيث أن الصبر بمراتبه الثلاث التي هي الصبر في المصيبة، وعلى الطاعة، وعن المعصية، لا يُبقي بقية من السنن إلا وقد تضمنها.

وقد ورد التصريح في الاخبار الواردة في المتعة: بأني أكره للرجل منكم أن يترك خلة قد فعلها رسول الله صلى الله عليه وآله.

ففي الفقية عن بكر بن محمد عن إبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن المتعة.

فقال: إنّي لأكره للرجل المسلم أن يخرج من الدنيا وقد بقيت عليه خلّة من خلال رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقضها(٢).

---

(١) البحار ٧٧: ٧٧.

(٢) الفقيه ٣: ٤٦٠٢/٤٦٣.

وروي أن المؤمن لا يكمل حتى يتمتع(١).

وعن الصادق عليه السلام مرسلاً: إني لأكره للرجل أن يموت وقد بقيت علية خلة من خلال رسول الله صلى الله عليه وآله لم يأتها(٢)، انتهى.

وهو يدل على أنهم لا يؤثرون عن شيعتهم الإخلال بسنّة من سننهم. وأن من فعل ذلك فقد تعرض لدخول المكروه عليهم، أعاذنا الله وإخواننا من ذلك ووفقنا لادخال السرور عليهم.

ولا بأس بالإشارة إلى نبذة من سننهم التي اشتدّ بها اعتناؤهم بحيث ظهر منهم الالتزام والاهتمام بها على حد الاهتمام بالواجب، عسى أن يوفقنا الله للتأسّي بهم في الالتزام بها، إلا مع المانع القوي، والمعارض الأهم.

فمنها الوفاء بالعهد

فيفهم من طريقتهم عليهم السلام أن المؤمن ينبغي أن لا يلتزم بالوعد، حذراً من عروض العوارض، فيقع في إخلاف الوعد، وهو محذور عظيم في نظرهم عليهم السلام.

فما دام لا يمكنه التحكم بالعوارض لا يعد، فإذا وعد يلتزم بوعده، ولا يتخلف عنه، فمن تخلّف عن وعده فهو مباين لطريقة أهل البيت عليهم السلام، ويخرج بذلك عن شعارهم، ويدخل في شعار غيرهم، (العياذ بالله).

---

(١) الفقيه ٣: ٤٦٦/٤٦١٣.

(٢) الفقيه ٣: ٤٦٦/٤٦١٥.

ويرشدك إلى تصديق هذا المعنى إيصاء النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام بقضاء ديونه، وإنجاز عداته.

فلو لم يكن عنده معاملاً معاملة الدَّين، وملتزماً به التزام مشغول الذمّة به لكان من أعظم الأعذار فيه عروض الموت، وفوات التمكّن، فلم يحتج الى الزام الوصي به على حدّ الزامه بالديون.

ولقد أجاد من قال شعراً:

إن الفتى من بدا منه الجميل بلا وعد، ومن أنجز الميعاد نصف فتى
ومن تخلى عن الأمرين فامرأة ونصف امرأة من خلقه ثبتا

واعلم أن مرادنا من الالتزام بوفاء الوعد الذي هو طريقة أهل البيت عليهم السلام إنما هو ما كان من عروض الموانع والأعذار على وجه يبقى معه إمكان الوفاء.

أما مع عدم عروض الموانع فذلك لا كلام فيه، لأن الاخلال بالوعد لا لداعٍ نقص وقبح لو صدر من أقل الناس، فلا يليق أن يُعد التحرز منه في خواص أهل البيت عليهم السلام التي تريد الحث على الاقتداء بها.

ومنها الإحسان التبرعي

فوق الواجب وفوق ما حصل الوعد به، إذ هو عندهم كالواجب، فعن النبي صلى الله عليه وآله أنّه كان حسن الوفاء بمعنى أن عادته الشريفة مستمرّة على أنّه إذا استدان يُعطي قدراً زائداً فوق الدين، بحيث أنه قد عرف بهذه العادة.

وأما أهل بيته فسجيّتهم الكرم، وعادتهم الإحسان، كما في الزيارة الجامعة، وهم الممثلون لنص **﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾**[1].

وعن علي عليه السلام أنّه أعتق ألف مملوك من كدّ يمينه[2]، وكان لا يكتفي بعتقهم، بل يبذل لهم بعد العتق وصلة إلى التعيش والاكتساب.

وكذلك لما وعد الأعرابي بمكة بأربعة آلاف درهم باع له الحديقة التي غرسها رسول الله صلى الله عليه وآله فأعطاه الوعد وأفضل عليه[3].

والإحسان التبرعي فوق الدَّين، أو فوق الوعد، له موقع في النفوس ولو كان بشيء جزئي، ويفهم من طريقة أهل البيت عليهم السلام الالتزام به.

ومنه الإيثار على النفس ولو مع الخصاصة

قال الله تعالى: **﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾**[4].

واعلم أن المؤمن ما لم يلتزم بالإيثار على النفس، ويجعل همه ذلك فلا بد أن يغلبه حب النفس وهواها على الحيف، وترك

---

(١) سورة النحل، آية: ٩٠.
(٢) البحار ٤١: ٤٣/٢٠.
(٣) البحار ٤١: ٤٣/٢١.
(٤) سورة الحشر، آية: ٩.

الإنصاف، ولو في بعض الأحيان، فلا يكون مؤمناً، لأن المؤمن من أمن الناس شره.

بخلاف من ألزم نفسه بالإيثار فإن غاية ما تنازعه عليه نفسه ترك الإيثار، فإن فاته الإيثار فلا يفوته أصل أداء الحق، فعلى كلّ تقدير يكون الظلم مأموناً منه.

وهذا قليل من كثير، والاقتصار على هذا المقدار أولى. والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل.

البـــاب التـاســع

في الرضا بالقضاء

إعلم كما قدّمنا أنّ مدار ترقي المؤمن على تأسيه بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

وقد روي في الكافي عن ابن ابي يعفور عن الصادق عليه السلام قال: لم يكن رسول الله يقول لشيء قد مضى لو كان غيره[1]، انتهى.

انظر إلى تحرّجه الى تمنّي خلاف الواقع، حذراً من الوقوع فيما ينافي الرضا.

فالمطلوب من المؤمن توطين نفسه على الرضا بالواقع كيف كان.

واعلم أن منشأ عدم الرضا، وتمنّي خلاف الواقع إنما هو الجهل بحِكم الأشياء، ومصالحها، فلو ظهرت له حكمة الأشياء لما تمنّى الإنسان غير الواقع، فإذا عوّد المؤمن نفسه على التأمل في حِكم

---

(١) الكافي ٢: ١٣/٥٢.

الأشياء ومصالحها يظهر له كل كثير منها، ويسهل عليه الرضا، وما لم يظهر له وجهه يمكن أن يجعله من باب الحاق المجهول بالأعم الأغلب.

ولكل شيء مصالح عديدة، وحِكم كثيرة، فمهما توجه الإنسان إلى ربه، وطلب منه إظهار بعض وجوه الشيء أظهر له على حسب إستعداده وقابليته، وطلبته وإرادته.

وهذا أقرب الطرق في تحصيل الرضا بالقضاء.

وأما توطين النفس على الرضا بالشيء ولو مع اخفاء حكمته والجهل بها، ففيه صعوبة بالنسبة الى ما ذكرناه.

وقد نقل أن مولانا الحسن بن علي عليه السلام علّم بعض الشيعة في عالم الطيف أنه ينال ما يريده من نهاية القرب منهم والتمكّن من رؤيتهم مهما أراد، بالاتصاف بما في هذه الأبيات وهي قوله:

كن عن همومك معرضاً ... وكِلْ الأمورَ إلى القضاء
فلربما اتسع المضيق ... وربما ضاق الفضا
ولربّ أمرٍ مسخطٍ ... لك في عواقبه رضا
ألله يفعل ما يشاء ... فلا تكن معترضا
ألله عوّدك الجميل ... فقس على ما قد مضى

فلعمري أن هذه الأبيات فيها الشفاء من كل داء لمن عمل بها، وعمدتها تحصيل درجة الرضا بالقضاء، ﴿**وما يُلقّاها إلا الذين صبروا وما يُلقّاها إلا ذو حظٍّ عظيم**﴾[1].

---

(١) سورة فصلت، آية: ٣٥.

وقد اشتملت هذه الأبيات الشريفة الصادرة من ينبوع الحكمة، ومعدن العصمة على طُرفٍ في الإرشاد الى تحصيل هذه الرتبة السنيّة.

فمنها كون الإنسان معرضاً عن همومه، وهو من أعظم المقدمات لينال هذه الدرجة، فإن واردة الهموم أعظم شيء إفساداً للقلب، والقلب وقت اشتغاله بها معرض عن ربه مشغول عن التوجه اليه سبحانه بما فيه من الهموم والأحزان، فتظلم أقطار القلب وجوانبه بأعراضه عن باريه، وتنهدّ بُنية الجسد، وربما يؤثر مرضاً شديداً، مؤدياً الى الهلاك والعطب.

ثم بعد اليأس والعجز عن التدبير، وانقطاع الحيل والآمال ترى الإنسان يقول: (على الله) كأن الله وكله الى تدابيره التي لا تسمن ولا تغني من جوع.

وكل هذا ناشىء من الجهل بمراد الله، وبطريقة أهل البيت عليهم السلام، ومن الأنس بما اعتادته النفس الأمّارة.

والذي أرشد اليه أهل البيت عليهم السلام أن الواجب على المؤمن أن يعوّد نفسه على الأعراض عن الهموم، حتى يتفرّغ قلبه للتوجّه الى باريه، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله إلا بذكر الله تطمئن القلوب**﴾[1].

فالقلب إذا توجّه الى ذكر الله وعطفه ولطفه ورأفته ورحمته فرّت عنه الهموم والأحزان والغموم، فإنما تنشأ من الالتفات الى جانب

---

(١) سورة الرعد، آية: ٢٨.

النفس وإجراء الأمر على ما يقتضيه حالها من العجز، والضيق، والتحير بكل شيء والحرص على ما في يدها.

وأما مع الالتفات الى حفرته الأحدية التي كل بعيد عندها قريب، وكل صعب عندها سهل، ونسبة الأشياء اليها على سواء، ومقتضاها الرأفة والرحمة فأين الهم والغم؟ ولماذا يكون الأسف والحزن؟

فإن كان على ما فات لا يعود فهو يخلفه بأضعاف مضاعفة، فربما كان فوته تجارة لا خسارة، حيث فاتك واحد وعوضت عنه بألف، أو بالآلاف، أو بما لا عداد له ولا نهاية.

فيا أخي لا راحة للقلب حقيقة إلا عند ذكر الله، ولا اضطراب له إلا عند التفات النفس الى عالم الضيق، والحرص والبخل، واليأس من الروح والراحة.

فالإعراض عن الهموم يكون باعثاً على التوجّه الى الحيّ القيوم، أو يكون منبعثاً عن التذكر الفارج للهموم، والكاشف للغموم.

فأقلّ ما يتوسل به الى تحصيل الرضا بالقضاء هو إلقاء الهموم والغموم عن القلب، وتفريغ البال للتوجه الى حضرة ذي الجلال.

فعند ذلك نشاهد الطافه الخفية، والجليَّة، وضمانه لعبده الكفاية في الأمور الكلية والجزئية، وهو قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**أليس الله بكافٍ عبده**﴾[1].

فلا تجد مناصاً عن ايكال الأمور الى قضائه، فإن الله عزَّ وجلَّ

---

(١) سورة الزمر، آية: ٣٦.

وإن أمر بالأسباب، لكنّه لم يأمر مطلقاً، بل بشرط عدم الاعتماد عليها، وترك الاتكال عليها، فيكون الإتيان بالأسباب حينئذ امتثالاً لأمره، فإن أثّرت فبإذنه عز وجل، وإن لم تؤثّر فالعبد قد امتثل، وفرغ عن عهدة التكليف، وعلى الحكيم أن يفعل ما تقتضيه حكمته، وعلى العبد أن يكل الأمر الى قضائه، فيصبر له، أو يسلّم، أو يرضى.

فالقضاء إن كان بالمحبوب فهو المحبوب، وإن كان بما تكره النفس فالواجب على العبد أن يسلّي نفسه بأنه ربما اتسع المضيق، ورب للتكفير في هذا المقام بقرينة المقام، وربما ضاق الفضاء وهو أيضاً كثير.

فالحكيم لا بد أن يقلّب على عبده الأحوال، لئلا يطمئن الى حال، ومراده أن يكون منقطعاً اليه في كل الأحوال، حيث أنه في حال اليسر لا يأمن تبديله في كل دقيقة، فلا بد في كل دقيقة من الانقطاع اليه في تلك الدقيقة، وهكذا...

وكذلك في حال العسر الانقطاع يكون العبد اليه أحوج لعجزه، وضعفه عن تحمل البلاء.

فإن كان لا بد من تقليب الأحوال على هذا العبد فلا بد من تسلية النفس بأن هذه الأحوال لا تدوم، وكثير فيها التقلب والتبديل، فينبغي أن لا يعتد بفرحها ولا يؤثر من فرحها[1] وذلك قوله عزَّ وجلَّ: **﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم﴾**[2].

---

(١) العبارة هكذا في النسخ التي قابلناها ولعل الأصل: ولا يأسى على ما فاته منها.
(٢) سورة الحديد، آية: ٢٣.

ويضاف الى هذا في التسلية بأن أكثر هذه الابتلاءات اختبارات، فإذا انكشف حال العبد اما بالصبر، أو بالعجز، أو بالضجر، وعرف من نفسه ذلك رفع الله عنه ذلك، وجعل عاقبة أمره يسراً، وهو قوله:

ولرب أمر مسخط لك في عواقبه رضا

والاختبار غالباً مجرد حصول وقوع الابتلاء، من دون حاجة الى طول المدة، فإذا كانت المدة قصيرة، والعاقبة لما فيه رضاه هان الخطب.

وأما قوله:

الله يفعل ما يشاء فلا تكن معترضاً

ففيه تحذير من الاعتراض على قضاء الله، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: من أصبح على الدنيا حزيناً، فقد أصبح لقضاء الله ساخطاً[1]، كذا في نهج البلاغة.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام أن الحسن بن علي عليه السلام لقي عبد الله بن جعفر فقال: يا عبد الله كيف يكون المؤمن مؤمناً وهو يسخط قسمه ويحقّر منزلته، والحاكم عليه الله؟ وأنا الضامن لمن لا يهجس في قلبه إلا الرضا أن يدعو الله فيستجيب له[2].

وأما قوله:

الله عودك الجميل فقس على ما قد مضى

---

(١) قصار كلماته: ٢٢٨.

(٢) الكافي ٢: ١١/٥١.

ففيه كمال التأمل بتذكر عوائد الله الجميلة، وألطافه الجليلة، التي بملاحظتها يحصل للعبد علم عادي بأن الله لا يخليه اذا انقطع اليه فيما دهاه من الفوادح، من عطفة من عطفاته يحي بها الموات، ويرد بها ما قد فات، وقد اشتمل على هذا المعنى والمعنى الذي قبله شعر منسوب في مصباح الشريعة الى مولانا علي عليه السلام:

رضيت بما قسم الله لي وفوضت أمري الى خالقي
كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي

والأخبار الواردة في الحث على الرضا أكثر من أن تحصى.

فمنها الحديث القدسي المشهور أن الله تعالى يقول: لا إله إلا أنا، من لم يصبر على بلائي، ولم يرض بقضائي فليتّخذ رباً سواي.

وكفى بهذا التهديد الإلهي واعظاً لمن عقل، ومنبهاً لمن جهل.

وعن الحسين بن خالد، عن الرضا، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال الله عزَّ وجلَّ: من لم يرض بقضائي، ولم يؤمن بقدري فليلتمس الهاً سواي».

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: في كل قضاء الله عزَّ وجلَّ خيرة للمؤمن[1]، انتهى.

واعلم يا أخي ﴿**يمحو الله ما يشاء، ويثبت، وعنده أم الكتاب**﴾.

والقضاء أول ما يرد على العبد يرد بطور الأجمال يعني بحيث

---

(١) البحار ٧١: ١٣٩/٢٥.

يمكن أن يكون نعمة وأن يكون نقمة، وإن كان ظاهره أنه من نوع الابتلاء والعقوبة.

فإذا أحسن الظن العبد بربّه وتفاءل بـالخير ووطّن نفسـه على الرضا بالقضاء قلب الله ما ظاهره أنه نقمة، وبدّله نعمة وأجرى الأمر على ذلك، وبالعكس العكس.

فالعبد لا زال بسوء ظنّه وقلّة رضائه بالقضاء وشدة انزعاجه من واردات الابتلاء يستجلب لنفسه بلاءً فوق بلاء، ويقلّب ما عليه نعمة الى الوبال والنقمة.

وفي (الجواهر السنية) عن الرضا عليه السلام، عن أبيه عليـه السلام، عن آبائه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

أوحى الله الى نبي من أنبيائه أن أخبر فلاناً الملك أني متوفّيه الى كذا وكذا.

فأتاه ذلك النبي فأخبره، فدعا الله الملك وهو على سريره حتى سقط من السـرير فقـال: يا رب، أجلني حتى يشب طفلي وأقضي أمري.

فأوحى الله الى ذلك النبي: أن اءت ذلك الملك فاعلمه أني قد أنيت في أجله وزدت في عمره خمس عشرة سنة.

فقال ذلك النبي: يـا رب، أنت تعلم أني لم أُكذّب قط[1]، فأوحى الله عزَّ وجلَّ إليه: إنما أنت مأمور، فأبلغه ذلك، والله لا يُسأل

---

(١) أي شكا هذا النبي الى الله عز وجل أنه ربما سوف يكذبه الملك اخباره الأول.

عمّا يفعل[1]، انتهى الحديث الشريف.

فلا شك أن الانقطاع الى الله عزَّ وجلَّ، والالتجاء إليه، وحسن الظن به، ومبادرة الأمر بالصدقة، والدعاء، وصلة الرحم، لها تسبب في تبديل واردات القضاء.

اللهم ان كنت عندك شقياً، أو محروماً مقتراً عليّ رزقي فاكتبني عندك سعيداً مرحوماً، دارّاً عليّ رزقي، فإنّك قلت في كتابك: «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب» وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

فيا أخي، كيف لا يرضى العبد بقضاء ربه؟ وقد روى الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن الله يقول: يا بني آدم، كلكم ضال إلا من هديت، وكلكم عائل إلا من أغنيت، وكلكم هالك إلا من أنجيت، فاسألوني أكفكم وأهدكم سبيل رشدكم.

إن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفاقة ولو أغنيته لأفسده ذلك.

وإن من عبادي من لا يصلحه الا الصحة ولو أمرضته لأفسده ذلك.

وإن من عبادي لمن يجتهد في عبادتي وقيام الليل لي فألقي عليه النعاس نظراً منّي له، فيرقد حتى يصبح، ويقوم حين يقوم وهو ماقت لنفسه، زارٍ عليها، ولو خلّيت بينه وبين ما يريد لدخله العجب

---

(١) الجواهر السنيّة: ١٢٣.

بعمله، ثم كان هلاكه في عجبه ورضاه عن نفسه، فيظنّ أنه قد فاق العابدين، وجاز باجتهاده حدّ المقصّرين، فيتباعد بذلك منّي وهو يظن أنه يتقرب اليّ به.

إلا فلا يتكل العاملون على أعمالهم وإن حسنت، ولا ييأس المذنبون من مغفرتي لذنوبهم وإن كثرت، ولكن برحمتي فليثقوا، ولفضلي فليرجوا، وإلى حسن نظري فليطمئنّوا، وذلك أني أدبّر عبادي بما يصلحهم، وأنابهم لطيف خبير[1]، انتهى الحديث الشريف.

---

(١) البحار ٧١: ١٤٠/٣١.

دقائق الملاحظات

مما نبه عليه أهل البيت شيعتهم
في باب الرضا بالقضاء

وأعلم أن لأهل البيت تنبيهات على مقامات عالية في الـرضا بالقضاء، فهنيئاً لمن تنبّه لها، وعثر عليها، فإنها من كنوزهم عليهم السلام التي أودعوها صفحات الكتب عسى أن تصل الى أهلها مع علمهم بقلّتهم، وقليل ما هم، وقليل من عبادي الشكور.

فرجونا أن يشرف الله كتابنا هذا بجمع نبذ منها ما لم يجتمع في غيره، فإن عمدة قصدنا فيه الاشارة الى ما لم يُسطّر، أو الانتقاد لما قد سطر ما لم يصدر من عين صافية.

فمنها أنهم ألزموا أنفسهم بعدم الانتصار لأنفسهم في مقامات الابتـلاء بل يتلقـون البلاء بـالتسليم، والصبـر، حتى يجيئهم الأمـر الخاص بتدارك وارد البلاء، ودفعه بالدعاء.

ولذلك كان يظهر عليهم في بعض الأحوال حال الخضوع لله والانكسار بين يديه لفقد أدنى الأشياء من الغذاء والماء، مع تمكينهم من كل شيء بالدعاء، فما ذلك إلا لما لزموا به أنفسهم وقيدوها بعدم

الانتصار لأنفسهم بالدعاء، وترجيح جانب الصبر عليه، مع تخييرهم بين الاصطبار والانتصار، الا أن أفضل الفردين عندهم الاصطبار، وهم لا يتركون الأولى أبداً حتى يجيئهم الأمر الخاص بترجيح الفرد الآخر.

يفصح عن هذا المعنى قضية علي بن الحسين عليه السلام لما شكى إليه بعض شيعته الحاجة، فبكى الإمام عليه السلام رحمة له، فقال له: يا سيدي، وهل يعد البكاء الا للمصائب والمحن الكبار؟!

فقال له: وأي محنة ومصيبة أعظم من أن يرى المؤمن بأخيه فاقة ولا يقدر أن يسدها.

فخرج ذلك الشيعي من عند الإمام متحيراً، فبلغه قول النصاب: ما أعجب أمر هؤلاء ساعة يدّعون أن السماوات والأرض تطيعهم، وأن كل شيء بأيديهم، وساعة يعجزون عن إعانة بعض شيعتهم بشيء يسير!

فرجع ذلك الفقير إلى الإمام عليه السلام قائلا: مصيبتي بكلام هؤلاء النصاب أعظم من مصيبتي بفقري، وشدة حاجتي.

فقال الإمام عليه السلام: ويلهم أما علموا أن لله أولياء لا يقترحون على الله! يا عبد الله قد أذن الله بفرجك، ثم أعطاه فطوره وسحوره، ففرج الله عنه بذلك فرجاً عاجلاً، ورزقه درّة عظيمة في جوف سمكة، فباعها بمال غزير، ثم رد القرصين إلى الإمام عليه السلام[1].

---

(١) البحار ٤٦: ٢٠/١ باختلاف بالألفاظ.

والحكاية مشهورة ومحل الشاهد منها قوله: «أما علموا أن لله أولياء لا يقترحون».

ونظيرها قضية سلمان الفارسي (ره) لما ابتلي باليهود وهم يضربونه ويقولون: لم لا تدعو الله بمحمد وعلي أن يعجل بهلاكنا، ويخلصك من أيدينا؟!

فيقول لهم: الصبر أفضل، وأنا أدعو الله أن يصبرني، ولعل الله أن يخرج من أصلابكم مؤمناً، فلو دعوت الله عليكم بالهلاك كنت قد قطعت مؤمناً من الإيمان.

فلم يدع عليهم حتى انكشف الحجاب بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله فأمره بالدعاء عليهم، وأخبره بأنه ليس في أصلابهم مؤمن[1].

والقضية في تفسير الإمام العسكري عليه السلام عند قوله تعالى: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾[2] من أحبها فليراجعها فهي من أعاجيب الدهر، ولا عجب من تشبّه بساداته حتى أخبروا عنه أنه منهم أهل البيت عليهم السلام.

ومن هذا الباب قضية المعراج حيث كلف النبي صلى الله عليه وآله بخمسين صلاة فلم يراجع ربّه، حتى سأله موسى عليه السلام المراجعة، فلم يزل يراجع، ويخفف عنه وعنهم حتى انتهت إلى خمس صلوات فسأله موسى المراجعة، فقال: قد استحييت من كثرة المراجعة.

---

(١) تفسير الإمام العسكري: ٦٨.

(٢) سورة البقرة، آية: ٣.

فأوحى الله إليه: أنك لما صبرت على الخمسة فهي لكم عندي بخمسين[1].

فكان التماس موسى بمنزلة الأمر الخاص بطلب التخفيف، وقبل ذلك لم يستبح السؤال، وقد اشتملت الرواية على ذلك صريحاً لما سئل الإمام عليه السلام كيف لم يسأل النبي صلى الله عليه وآله التخفيف من الله قبل ذلك.

والحاصل أن كل الأنبياء السابقين ربما يصدر منهم استعفاء من بعض الابتلاءات أو التكاليف الشاقة المتعلّقة بأممهم.

وأما نبينا محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام فلم يتفق لهم الاستعفاء في مقام من المقامات، لكن لتلقيهم الوارد بالقبول يجيئهم العفو تفضلاً ببركة الترطين على الالتزام بما فيه المشقة والامتحان، فصارت شريعتهم بسبب ذلك أخف الشرائع، وأسهلها، حتى قال النبي صلى الله عليه وآله: جئتكم بالشريعة السمحة السهلة.

ولقد أجاد عقيل بن أبي طالب بتسليته لأبي ذر حين طردوه إلى الربذة، فخرج معه علي، والحسنان، وعقيل، مشيعين له فقال له عقيل في جملة كلام له للتسلية: إن استعفاءك البلاء من الجزع، وإن استبطاءك العافية من اليأس، فدع الجزع واليأس، وقل: حسبنا الله ونعم الوكيل[2].

وقد تقدم لك أن هذه المقامات الدقيقة مأنوسة عند خواص أهل

---

(١) البحار ١٨: ٣٤٨ عن التوحيد للشيخ الصدوق: ٨/١٧٦ باختلاف.
(٢) البحار ٢٢: ٤٣٦ عن الكافي ٨: ٢٥١/٢٠٧.

البيت عليهم السلام الذين حظوا بطول الصحبة حتى اقتبسوا من مشكاتهم هذه الأنوار.

ولا يثبطنك الشيطان عن أخذ حظك من هذه المقامات بما ألقاه على ألسنة أهل عصرنا هداهم الله، من أنّ هذه المعاني مقصورة على أهل البيت عليهم السلام، وهي من خواصهم، فليس الخطاب بها شاملاً لأمثالنا.

ولعمري لقد تاهوا تيهاً شديداً وضلوا ضلالاً بعيداً، ما هذه المقامات التي تبلغها عقولنا وأحلامنا إلا لعبيد أهل البيت عليهم السلام، بل لأقل عبيدهم.

فأما مقاماتهم الخاصة بهم فأين الثريا من يد المتناول، والأحلام والأفهام عنها بمراحل؟ ولكن لقول الله:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾[1].

وقد صار أهل البيت ينسبون كلام الأخلاق، ومعاني الآداب لرسول الله صلى الله عليه وآله، ويحكونها عنه، حثاً عليها وترغيباً لها، لا أن كل ما ينسب اليه يكون من خصوصياته، فيبطل الاقتداء، سبحانك هذا بهتان عظيم.

ونقل أن أبا ذر الغفاري كان يحب المرض ويختاره على العافية، لما فيه من الأجر والثواب[2].

وعن بعض الأئمة عليهم السلام حكي ذلك ثم قال بعده: لكنّا

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٢١.
(٢) البحار ٨١: ١٧٣/٩.

قوم العافية أحبّ إلينا من المرض، والمرض وقت المرض أحب الينا من العافية.

وفي هذا الكلام الصادر من ينبوع الحكمة والعصمة تنبيه على تفضيل درجة الرضا بالقضاء- سواء كان بالمحبوب أو بالمكروه - على مقام إيثار المكروه على المحبوب رغبة في ثوابه، وشوقاً إلى جزائه.

ولا شك في ذلك، فإنها مع مساواتها لها في إيثار المكروه، وكونه أحب من المحبوب وقت تقديره وحصوله، تزيد على ذلك بعدم اختيار المرض وطلبه عند عدم حصوله - وإن كان تمنّيه رغبة في ثوابه وإرضاء النفس به بحيث يصير من المشتهيات من المقامات العالية التي لا تتفق إلا لمثل أبي ذر - أن فيه شائبة الاقتراح على الله واعتراضاً على قضائه.

وأراد الإمام عليه السلام إزالة هذه الوهمة والتنبيه على عوز هذه الحكمة، وهو مقام الاعتدال الحقيقي، والاستقامة التامة، التي أشار إلى صعوبتها سيد الكونين بقوله: شيبتني آية في سورة هود[1]، وهي قوله تعالى ﴿فاستقم كما أمرت﴾[2] صدق الله العظيم.

---

(١) راجع جامع الجوامع: ١٧٠.

(٢) سورة هود، آية: ١١٢.

البـــاب العـاشـــر

فيما يتبع الرضا بالقضاء من التوكل والتفويض والتسليم

اعلم أن الإنسان ما لم يسرح نظره في هـذه الأبواب ويـأخذ نصيبه منها لا يذوق حلاوة الإيمان، وإن كان لأهل الإيمان فيها مراتب ومقامات، على قدر تفاوتهم فيها تختلف مراتب قربهم إلى الله.

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾[1].

ولقد أجاد القائل حيث يقول:

إلهي بكت للخوف منك عصابة ... وما كل من يبكي لديك له ذنب
ولكنهم للقـرب منك تـراهم ... مدامعهم تجري فيا حبذا القرب

ومن أجل توقف الإيمان الذي هو أعلى درجة من الإسلام عند المقـابلة على حصول هـذه المقامـات كذب الأعـراب في دعـواهم للإيمان حيث قال عز من قائل: ﴿**قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا**

(١) سورة المجادلة، آية: ١١.

﴿ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم﴾[1].

فيا خجلتاه ويا فضيحتاه ممن يكذب في ذلك اليوم في دعواهم الإيمان وهو يسمى باسم المؤمن، وتموّه عليه نفسه أنه من المؤمنين فما أحقه بقول القائل:

كذبتك نفسك لست من أهل الهوى
للعاشقين علائم ودلائل

وليتنا تنبهنا لقول القائل أيضاً:

إذا كنت تهوى القوم فاسلك طريقهم
فما وصلوا إلا بقطع العلائق

هذا ونحن نسمع الله يقول: **﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾**[2].

ونسمعه يقول: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾**[3].

فإذا تحقق توقف الإيمان على التوكل والتسليم وما في معناهما من التفويض، فينبغي المبالغة والاجتهاد في تقوية ما هو مناط وصف الإيمان وعليه تدور رحاه.

إذ مدار هذا الحث العظيم في الكتاب العزيز والسنّة للمؤمنين

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٤.

(٢) سورة المائدة، اية: ٢٣.

(٣) سورة النساء، آية: ٦٥.

على الإيمان ولوازمه التي ذكرناها، حتى أنه عز وجل يقول: ﴿يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا﴾ إنما هو تحصيل القدر المعتد بـه من الإيمان بحيث يكون بمنزلة مستوى الخلقة الذي تنصـرف اليه الاطـلاقات، ويظهر فيه ترتيب الثمرات.

فأما أقل ما يحصل به مسمى الإيمان فهو حاصل لهم فلا يكلف بتحصيله، وأما على الأفراد فهو كمال زائد، وهو غير محدود بحد، فلا يليق أن ينفي إسم الإيمان بدونه.

فصار الحث العظيم على ترتيب المرتبة الوسطى التي هي بمنزلة مستوي الخلقة الذي هو الفرد المتيقّن في الامتثال للأوامر المطلقة فما دونه كأنه محل شك في الإرادة، وما هو أعلى لو حصل فلا ريب أنه أكمل.

وهذه المرتبة الوسطى هي المعروفة .باستجماع المرتبة الوسطى من هذه اللوازم فما دونها من المراتب، يطلق عليها الاسم نظراً إلى صدق الماهيـة، وينفى عنها نـظراً إلى أنها ليست المـرادة، ومعظم القصد إلى ما فوقها.

فإذا قد تدبرت هذه الجملة فلا مناص عن تشمير الساعد وبذل الجهد والهمّة في تحصيل القدر المعتد به من الإيمان بحيث يقطع بصدق إسمه عليه، ولا يصح سلبه.

وعليه دل الصادق عليه السلام على ما رواه الكافي بقوله عليه السـلام: إنكم لا تكونـون صالحين حتى تعـرفوا ولا تعـرفون حتى تصدقوا ولا تصدقون حتى تسلّموا، أبواباً أربعة لا يصلح أولهـا إلا

بآخرها، ضل أصحاب الثلاثة فتاهوا تيهاً بعيداً[1].

وكذلك نبه أمير المؤمنين عليه السلام على ما في الكافي عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: الإيمان أربعة أركان، التوكل على الله، والتفويض لأمر الله، والرضا بقضاء الله، والتسليم لأمر الله عزّ وجلّ[2].

وكذلك بينه وشرحه مولانا موسى بن جعفر عليه السلام على ما في تحف العقول بقوله عليه السلام: ينبغي لمن عقل عن الله أن لا يستبطئه في رزقه، ولا يتهمه في قضائه.

وسئل عن اليقين، فقال: يتوكل على الله، ويسلّم لله، ويرضى بقضاء الله، ويفوّض أمره إلى الله[3].

وكذلك نبه رسول الله على ما يلزم الإيمان والمعرفة من الأحوال والصفات، وعلى ما فقد من درجة أولياء الله فقال على ما في الكافي عن الصادق عليه السلام عن جده النبي صلى الله عليه وآله: من عرف الله وعظّمه منع فاه من الكلام، وبطنه من الطعام، وعَفىٰ نفسه بالصيام والقيام.

قالوا: بآباءنا وأمهاتنا يا رسول الله، هؤلاء أولياء الله.

قال: إن أولياء الله سكتوا فكان سكوتهم ذكراً، ونظروا فكان نظرهم عبرة، ونطقوا فكان نطقهم حكمة، ومشوا فكان مشيهم بين

---

(١) الكافي ٢: ٣/٣٩.
(٢) الكافي ٢: ٥/٤٧.
(٣) تحف العقول: ٤٠٨.

الناس بركة، لولا الآجال التي كتبت عليهم لم تقرّ أرواحهم في أجسادهم خوفاً من العذاب وشوقاً إلى الثواب[1].

وكذلك نبه مولانا علي بن الحسين عليه السلام على ما يلزم الإيمان والمعرفة من الصفات التي للمؤمن والمعارف بقوله على ما رواه عنه الطبرسي في الاحتجاج شعراً:

من عــرف الله فلم تغنـه | معـرفـة الله فـذاك الشقي
ما يصنع المرء بعزّ الغنى | والعـزّ كـل العــزّ للمتقي
ما ضرّ ذا الطاعة ما نالـه | في طاعة الله وماذا لقي[2]

فأصل هـذه الخيرات، والـذي عليه مـدار الأمر في كـل هذه المقدمات إنما هو دوام مراقبة الله في جميع الحالات بحيث لا يغيب عن نظرك، كما أنك لا تغيب عن نظره.

وهو قول النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر: أعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك[3].

وفي بعض الأحاديث: فإن كنت ترى أنه يراك ثم عصيته فقد جعلته أهون الناظرين إليك.

فإذا داومت على مراقبة الله، وتركت العلائق التي تشغلك عن التوجه إلى الله والالتفات إليه فلا بد حينئذ أن تشاهد ألطافه، وجميع عناياته بك، ورأفته وصفحه عنك، وستره عليك، وتبديله مساويك بالمحاسن، وسيئاتك بأضعافها من الحسنات، فعند ذلك يرسخ حبّه

---

(١) الكافي ٢ : ١٨٦/٢٥.

(٢) الاحتجاج: ٣١٧ باختلاف.

(٣) أمالي الطوسي ٢ : ١٣٨.

في قلبك، وتنبعث جوارحك لطاعته، كما تنبعث إلى طاعة كل محسن ممن هو دونه، والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، فكيف بهذا المحسن العظيم الرؤوف الرحيم.

ولذلك تنزجر نفسك عن السعي فيما يخالف رضاه حياء من مقابلة الإحسان بالإساءة، أو رهبة منه عند استيلاء عظمته على قلبك، أو خوفاً من انقطاع آلائه عنك، كما يقول القائل شعراً:

إذا كنت في نعمة فارعها　　　فإن المعاصي تزيل النعم

وكذلك عند التفاتك إليه ينمحي عن نظرك كل فاعل سواه، فلا ترى النافع الضار إلا الله سبحانه وتعالى، وكل أحد سواه فإنما يتصرف بإذنه.

فالقلوب لما أعرضت عن الله سبحانه تعلقت بهذه الأسباب لنسيانها لمسبب الأسباب، وإلا فعند ذكرها الله والتفاتها إليه لا ترى للإلتفات والتعلق بغيره معنى بالكلية.

وذلك فطري للعقول، إذ عند التمكن من الاستعانة بالأقوى كيف يجوز التشبث بالأضعف، بل الذي هو لا شيء بالنسبة إلى ذلك! خصوصاً بعد كون التوجه إليه مانعاً من إعانة الأقوى لك، فليس هو إلا كما قال الشاعر:

المستغيث بعمرو عند شدته　　　كالمستغيث من الرمضاء بالنار

ولهذا لما عرض جبريل عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام وهو في المنجنيق وقد رُمي إلى النار فقال له: يا أخي يا إبراهيم هل من حاجة؟

أجابه إبراهيم عليه السلام: أما إليك فلا.

فجعل الله عليه النار برداً وسلاماً[1]، وأنزل الله بشأنه، ﴿وإبراهيم الذي وفى﴾[2].

فكذا كلّ من حصل له الالتفات إلى الله تعالى في ذلك الحال ـ بنسبة مقامه ـ يقطع نظره عن جميع الأسباب، ويقصر نظره إلى مسبب الأسباب، وعلامة صدق ذلك إستقرار صدق قلبه وعدم اضطرابه لفقد الأسباب، بل يكون وجودها وفقدها على السواء.

حتى سمعت من بعض العارفين ـ أعلى الله مقامه ورفع في الدارين أعلامه ـ أنه ربما يحصل له اضطراب عند حصول الأسباب واجتماعها فإذا فقدت يكمل استقرار قلبه ويرتفع عنه الاضطراب بالمرّة.

وهذا أعلى مقامات التوكل وأصدقها، وكأن منشأ الاضطراب عند حصول الأسباب هو توجه الأمر الإلهي بملاحظة الأسباب فإن ملاحظتها مع عدم الاعتماد عليها مطلوبة ومأمور بها، فلا جرم يتشعب القلب بقدر تصوره لها وذكره إياها.

فأما إذا ارتفعت وانحصر نظر القلب إلى حجة واحدة استقر واطمئن بذكر الله كما وصف الله في كتابه العزيز: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[3].

وكذلك علامة صدقه أن لا يتأثر قلبه على من يمنعه الشيء عند الطلب منه، بل يجب أن يكون حاله كما كتب بعضهم إلى بعض

---

(١) البحار ١٢ : ٣٣.

(٢) سورة النجم، آية: ٣٧.

(٣) سورة الرعد، آية: ٢٨.

الحكام، وقد كتب اليه يطلب منه بعض ما إئتمنه الله عليه من رزقه، ولنعم ما كتب حيث قال: إن أعطيتني فالله المعطي، وقد أجرى الخير على يديك، وإن منعتني فالله المانع ولا بأس عليك، ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك.

فمن كان نظره إلى مسبب الأسباب وأن الأسباب آلات مسخّرة لا يتأثر قلبه من الآلات، ولا يغضب عليها.

نعم إذا كان من أجرى الخير على يديه لأن يكافىء بالإحسان لم يسقط حقّه بكونه مسخّراً، فإن صاحب الإحسان الحقيقي قد أثبت له عليك حق المكافات، وأوجب شكره عليك، بل لا يقبل منك الشكر إلا بشكرك لمن أجرى الخير على يديه.

وهذا أصل عظيم قد تغافل عنه بعض إخواننا الأتقياء حيث أغلب نظره إلى الله فلا يرى للخلق حقاً واجباً في الإحسان الذي يجريه الله على أيديهم، وهذا خطأ واشتباه عظيم، وجهل بطريقة أهل البيت عليهم السلام، وبما نفس الأمر والواقع.

فأما طريقة أهل البيت عليهم السلام ففي الكافي عن علي بن الحسين عليه السلام أنّ الله يقول لعبد من عبيده يوم القيامة: أشكرت فلاناً؟

فيقول: بل شكرتك يا رب.

فيقول: لم تشكرني إذ لم تشكره.

ثم قال: أشكركم لله أشكركم للناس[1]؛ وهو نص صريح فيما نقلناه.

---

(١) الكافي ٢: ٣٠/٨١.

فأما مخالفة هذه الشبهة الواهية لما في نفس الأمر والواقع فبيانه أن أصل هذه الشبهة من العامة والمعاندين، حيث أصل النعم من الله سبحانه وتعالى، وقد أجراها على يد محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين، فأراد العامة والمعاندون أن يقولوا: نحن نشكرك يا رب، ولا نعرف لهذه الوسائط حقاً، فردهم الله ولم يقبل شكرهم إلا بأن يشكروا لمن أجرى الخير على أيديهم، فجعل من شكره الاعتراف لمن جرى الخير على يديه بالإحسان، والشكر له على ذلك، فقد جعلهم الله الباب إليه، فكل من لم يأت من الباب طرد وبعد.

وكذلك المعارف والطاعات أراد العامة أن يتوجّهوا إلى الله من دون واسطة محمد وآله الطيبين الطاهرين فردّها الله عليهم ولم يقبلها منهم إلا بالتسليم لأوليائه والأخذ منهم والرد اليهم والتوجّه بهم، وكل ما لم يكن بواسطتهم فهو مردود على صاحبه، ووبال عليه.

وإنكار حق المحسنين الذين جرى الخير على أيديهم من سائر الناس شعبة من هذه الشبهة الملعونة، جرت إلى قلوب بعض أصحابنا الصلحاء من دون تنبّه لأصلها وحقيقتها، وقد كشفنا القناع عنها ليتحرّز من الوقوع فيها والله العاصم.

ويعجبني أن أنقل في هذا الباب حديثاً عجيباً شافياً وافياً عثرت عليه في (تحف العقول) للفاضل النبيل الحسن بن علي بن شعبة من قدماء أصحابنا،حتى أن شيخنا المفيد (ره) ينقل عن هذا الكتاب، وهو كتاب لم يسمح الدهر بمثله.

والحديث أنه دخل على الصادق رجل فقال له: ممن الرجل؟

فقال: من محبّيكم ومواليكم.

فقال الصادق عليه السلام: لا يحبّ الله عبدٌ حتى يتولّاه ولا يتولّاه حتى يوجب له الجنَّة.

ثم قال له: من أي محبّينا أنت؟

فسكت الرجل.

فقال سدير: وكم محبّوكم يا إبن رسول الله؟

فقال له: على ثلاث طبقات:

طبقة أحبونا في العلانية ولم يحبونا في السر، وطبقة يحبونا في السّر ولم يحبونا في العلانية، وطبقة أحبونا في السر والعلانية، هم النمط الأعلى، شربوا من العذب الفرات، وعلموا تأويل الكتاب، وفصل الخطاب، وسبب الأسباب، فهم النمط الأعلى، الفقر والفاقة وأنواع البلاء أسرع إليهم من ركض الخيل، مسّتهم البأساء والضراء وزلزلوا وفتنوا، فمن بين مجروح ومذبوح متفرقين في كل بلاد قاصية، بهم يشفي الله السقيم، ويغني العديم، وبهم تنصرون وبهم تمطرون، وبهم ترزقون، وهم الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدراً وخطراً.

والطبقة الثانية النمط الأسفل، أحبونا في العلانية، وساروا بسيرة الملوك، فألسنتهم معنا وسيوفهم علينا.

والطبقة الثالثة النمط الأوسط أحبّونا في السّر ولم يحبّونا في العلانية.

ولعمري لئن كانوا أحبونا في السّر دون العلانية! فهم الصوّامون بالنهار، القوّامون بالليل، ترى أثر الرهبانية في وجوههم، أهل سلم وانقياد.

قال الرجل: فأنا من محبّيكم في السّر والعلانية.

قال الصادق عليه السلام: إن لمحبينا في السر والعلانية علامات يعرفون بها.

قال الرجل: وما تلك العلامات؟

قال: تلك خلال:

أولها أنهم عرفوا التوحيد حق معرفته، وأحكموا علم توحيده، والإيمان بعد ذلك بما هو، وما صفته، ثم علموا حدود الإيمان، وحقائقه، وشروطه، وتأويله.

قال سدير: يا ابن رسول الله، ما سمعتك تصف الإيمان بهذه الصفة!

قال: نعم يا سدير، ليس للسائل أن يسأل عن الإيمان ما هو حتى يعلم الإيمان بمن.

قال سدير: يا ابن رسول الله، إن رأيت أن تفسّر ما قلت؟

قال الصادق عليه السلام: من زعم أنه يعرف الله بتوهم القلوب فهو مشرك.

ومن زعم أنه يعرف الله بالاسم دون المعنى فقد أقرّ بالطعن لأن الاسم محدث.

ومن زعم أنه يعبد الاسم والمعنى فقد جعل لله شريكاً.

ومن زعم أنه يعبد الصفة لا بالإدراك فقد آحال على غائب.

ومن زعم أنه يعبد الصفة والموصوف فقد أبطل التوحيد لأن الصفة غير الموصوف.

ومن زعم أنه يضيف الموصوف إلى الصفة فقد صغّر بالكبير، ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾[1].

قيل له: فكيف سبيل التوحيد؟

قال: باب البحث ممكن، وطلب المخرج موجود، إن معرفة عين الشاهد قبل صفته، ومعرفة صفة الغائب قبل عينه.

قيل: وكيف نعرف عين الشاهد قبل صفته؟

قال: تعرفه، وتعلم علمه، وتعرف نفسك به، ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك، وتعلم أن ما فيه له وبه كما قالوا ليوسف: ﴿أأنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي﴾[2].

فعرفوه به ولم يعرفوه بغيره، ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهّم القلوب، أما ترى الله يقول: ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾[3].

يقول: ليس لكم أن تنصبوا إماماً من قبل أنفسكم، وتسمّونه محقّاً بهوى أنفسكم وإرادتكم.

ثم قال الصادق عليه السلام: ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكّيهم، ولهم عذاب أليم: من أنبت شجرة لم ينبتها الله ـ يعني من نصب إماماً لم ينصبه الله ـ ومن جحد من نصبه الله، ومن زعم أن لهذين سهماً في الإسلام. وقد قال الله: ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة﴾[4].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٩١.

(٢) سورة يوسف، آية: ٩٠.

(٣) سورة النمل، آية: ٦٠.

(٤) سورة القصص، آية: ٦٩.

وأما صفة الإيمان قال عليه السلام: معنى صفة الإيمان الإقرار والخضوع لله بذلّ الإقـرار والتقرب إليـه به، والأداء لـه، بعلم كل مفروض من صغير أو كبير من حد التوحيد فما دونه إلى آخر باب من أبواب الطاعة، أولاً فأولاً، مقروناً ذلك كله بعضه إلى بعض موصول بعضه ببعض.

فإذا أدى العبد ما فرض الله عليه فما وصل إليه على صفة ما وصفناه فهو مؤمن، مستحق لصفة الإيمان، مستوجب للثواب.

وذلك أن معنى جملة الإيمان الإقرار، ومعنى الإقرار التصديق بالطاعة كلها، صغيرها وكبيرها، مقروناً بعضها إلى بعض، فلا يخرج المؤمن من صفة الإيمان إلا بترك ما استحق به أن يكون مؤمناً.

وإنما استوجب واستحق اسم الإيمان ومعناه باداء كبار الفرائض موصولة وترك كبار المعاصي واجتنابها، وإن ترك صغار الطاعة وارتكب صغار المعاصي فليس بخارج من الإيمان، ولا تارك له، ما لم يترك شيئاً من كبار الطاعة، ولم يرتكب شيئاً من كبار المعاصي، فما لم يفعل ذلك فهو مؤمن، لقول الله تعالى: **﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾**[1].

يعني المغفرة ما دون الكبائر فإن هو ارتكب كبيـرة من كبائـر المعاصي كان مأخوذاً بجميع المعاصي، صغيـرها وكبيـرها، معـاقباً عليها معذباً بها.

فهذه صفة الإيمان وصفة المؤمن المستوجب للثواب[2].

---

(١) سورة النساء، اية: ٣١.
(٢) تحف العقول: ٣٢٥.

انتهى ما أردنا نقله وله تتمه من أرادها فليطلبها، وقد اشتمل من تنويع المحبة لأهل البيت عليهم السلام ـ التي هي عنوان الإيمان، ومنها يعلم تنوّع الإيمان ـ على ما لم يشتمل عليه غيره من الأحاديث. وما لم يوجد مجتمعاً في حديث، وإن كانت الأحاديث مع جمعها بضم بعضها إلى بعض تقصد ما في هذا الحديث الشريف.

وكذلك أحاديث أهل البيت عليهم السلام يفسّر بعضها بعضاً، لا يخالف بعضها بعضاً، وإنما يرى الاختلاف فيها لعدم معرفة المقامات التي سيقت لبيانها، وكل منها يقصد به بيان مقام من المقامات، ويُشار به إلى غيره من المقامات بالإشارة والتلويح لينال كل احد نصيبه.

﴿قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾[1].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٦٠.

البـاب الحـادي عشـر

في أن لأهل الإيمان درجات
يتفاضلون فيما بينهم في حدودها

فيما جاء في تعداد درجات أهل الإيمان وسهامهم وأن المقداد ـ رضوان الله عليه ـ في الثامنة، وأبا ذر ـ رضوان الله عليه ـ في التاسعة، وسلمان ـ رضوان الله عليه ـ في العاشرة، وما وراء عبادان قرية.

ففي الكافي عن عبد العزيز القراطيسي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا عبد العزيز، إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم يصعد منه مرقاة بعد مرقاة.

فلا يقولن صاحب الاثنين لصاحب الواحدة لست على شيء، حتى ينتهي إلى العاشرة، فلا تسقط من هو دونك فيُسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك درجة فارفعه إليك برفق ولا تحملن عليه ما لا يطيق فتكسره، فإن من كسر مؤمناً فعليه جبره[1].

وصلى الله على محمد وآل محمد الطيبين الطاهرين.

وقد حال القضاء دون التمام، فأسأل الله الملك العلام أن يخلف علينا من يتم هذا الكلام ولا ييأس من رحمته إلا القوم اللئام.

---

(١) الكافي ٢ : ٣٧/٢.

فهرس الموضوعات